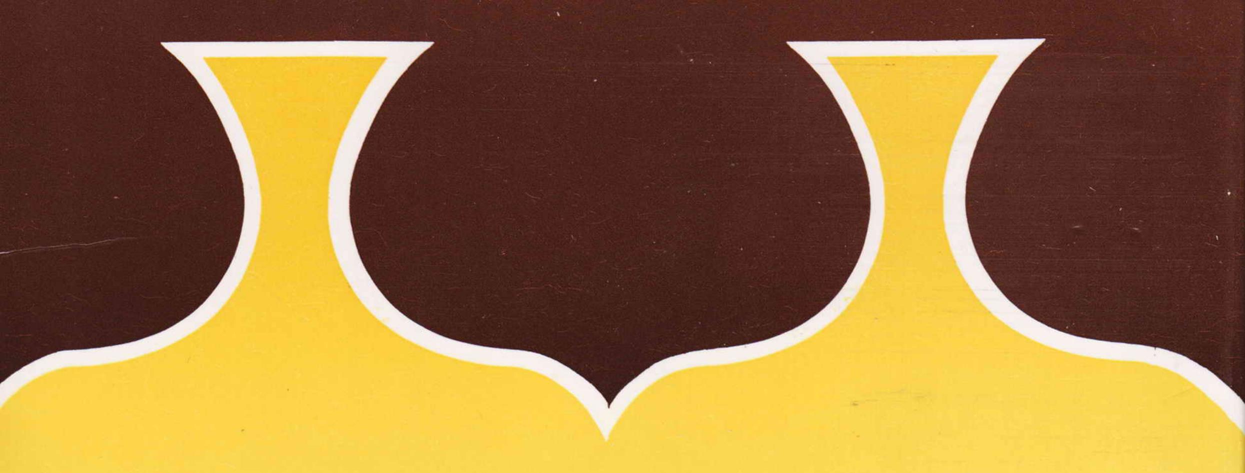
محمد جواد مغنية

مع علماء النجف الأشرف



دار ومكتبة الهلال

دار الجواد



مع علماء النجف الأشرف

محمد جواد مغنية

مع علماء النجف الأشرف

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان

دار الجواد
بيروت - لبنان

دار ومكتبة الهلال

بيروت - لبنان

ص . ب . ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد

بيروت - لبنان

ص . ب . ١٤/٥٨١٣

تلفون : ٣٠٠٧٤٨

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

فقد لاحظت وانا اتابع الحركة الفكريه نشاطاً ملحوظاً ، واهتماماً بالغاً من طائفة من اهل القلم بان يعرفوا قراءهم – عن طريق الصحف والكتب – بعلمائهم وادبائهم ، والمفكرين منهم القدامى والمحدثين .. ومن حيث لا اشعر انعكست في نفسي مشاعر اولئك الكتاب والمؤلفين ، واهتمامهم بالعظماء من رجالهم ، فعبرت عن هذا الانعكاس بهذه الصفحات المتواضعة .

وابادر الى القول بانها ليست بحثاً في التاريخ والتراجم ، ولا عن افكار الاعلام وفلسفاتهم ، وما تركوه من اثار ، وانما هي عرض لصور من اخلاقهم الكريمة ، ومواقفهم الدينية وتصلبهم في جنب الله ، اما النواحي الاخر فيأتي الحديث عنها تبعاً غير مقصود اولا وبالذات .

وقد التزمت ان اذكر –اولا– من هذه المواقف ما سمحت لي الظروف

بالاطلاع عليه ، ثم اعمد الى تحليله ، ومقارنته مع اوضاعنا الدينية بوجه عام تاركاً التطبيق ، ومعرفة الاشخاص الى فهم القارىء مكتفياً بتنبيهه الى ان العبرة بالعمل ، لا بالعلم ، وبالمخبر ، لا بالمظهر .

ولا بد ان يثب الى ذهن القاريء هـذا السؤال : لقد اسميت الكتاب « مع علماء النجف الاشرف » وفيه سلمان وابو ذر الغفاري وأبان بن تغلب ، فما علاقة هؤلاء بالنجف وجامعة النجف ؟

الجواب

ان النية كانت في بدء الامر على تسمية الكتاب « مع العلمـاء » وحين مضيت في البحث والتنقيب بدا لي بجـلاء ووضوح ان اكثر عظماء الشيعة تخرجوا من جامعة النجف فاضفتهم اليها بل لا ندحة لي عن هذه النسبة بعد ان ارتقت النجف باغلب من تحدثت عنهم الى اسمى المراتب ، وخلقت فيهم روح القداسة والنزاهة عن النفعية والانتهازية . ولا بدع .. فان جامعـة النجف لا تبتغي من مناهجها ودروسها مجرد الحفظ ، وحمل الشهادات ، وانما تستلهم في كل درس تلقيه على طلابها روح آل البيت الذين قتـلوا وشـردوا وسجنوا ، وضحوا بالنفوس والعيـال والاموال والاصحاب من اجل الانسان وكرامة الانسان .

واذا تساءل القاريء ان النجف خرّجت افراداً لا يصلحون لشيء غـير الهزء والسخرية فسيجد الجواب مفصلا عن هذا التساؤل في صفحات الكتاب، وملخصه : اي ذنب للنجف اذا دخلها وخرج منها بليد لا يصلح لشيء ، او ضعيف الهمة ، او لص محتال ؟.. وهل يطلب منها اكثر من البراءة منـه ، وعدم الثقة به ؟!..

ورب معترض يقول : ان الانسان في حقيقته نفس البيئة التي يعيش فيها

ونفس علاقاته الاجتماعية، والظروف التي تحيط به. ولذا قيل: «ان الانسان هو بيئة الانسان» . وعليه ينبغي ان يكون جميع خريجي النجف من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، او لا يكون فيهم لص محتال على الاقل .

الجواب

ان الذين قالوا : ان الانسان هو بيئة الانسان ينظرون اليـــه من جانب واحد ، من خلال البيئة والمادة التي وهبوها او حصروا بها كل شيء .. امـا الذات فليست عندهم بشيء يتصف بالطيبة او الخبث ..ولو صح هذا لكانت البيئة اله يخلق كل شيء ، ولكان افرادها كلهم اخيارا ، او كلهم اشرارا .. بل لما جاز ان يوصف الانسان بشيء من ذلك ، لانه كريشة في مهب الريح ..

اجل،ان البيئة شيء له فعالية ، ما في ذلك ريب،ولكنها ليست كل شيء وكذلك الذات شيء له فعالية تتجلى في الشجاعة ونكران الذات ، وفي الذكاء والعبقرية ، وفي العلم والحكمة ، وما اليها من مواهب ، وصدق من قـــال : «ان قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وان قوماً احياء تموت القلوب برؤيتهم»

وبالتالي ، فلا ندحة لي عن التنبيه الى اني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل لضرب الامثـــال ، وكفى ، واني لم اترك من تركت عن سابق ارادة وتصميم ، وانمـــا كنت اراجع ، وابحث فيما لدي من المصادر [1] فمن رايت امامي ، ووجدت فيه طلبتي اخترته ، وتحدثت عنه بمـا استوحيته من اخلاقه وسيرته ، ومافيها من عبر وعظات ، على قدر الاستطاعة .

والله سبحانه المسؤول ان يأخذ بنا جميعا سبيل الصالحين . انه ارحـــم الراحمين . وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) وهي عندي أقل من القليل. وقيل لي: ان مصادر هذا الموضوع كثيرة في اللغة الايرانية. واقول بحزن واسف: اني اجهلها.

العلم

العلم خير

العلم خير في نفسه ، سواء أكان من علوم الدين ام الدنيا بدليل قوله تعالى « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » حيث عمم ، ولم يخصص الفضل بعلم دون علم ، وقول الرسول الاعظم (ص) : « اطلب العلم ولو في الصين » اراد به كل علم ، لا علوم الدين فحسب ، واتفقت كلمة الفقهاء على ان العلوم الدنيوية التي يتوقف عليها نظام الحياة ، ولا تتم بدونها ، كالصناعة والزراعة والتجارة تجب كفاية ، تماما كالعلوم الدينية .

علوم الدين

علوم الدين الاسلامي خمسة : علم الكلام ، والتفسير ، والحديث ، والفقه واصول الفقه . وعد البعض التصوف من العلوم الاسلامية ، وعرفه بانه علم القلب ، وتطهيره من الصفات الذميمه ، ونحن على غير هذا الراي ، لان التصوف اشبه بالزهد والتقشف على قول ، او هو اتصال الروح بخالقها مباشرة على قول اخر ، وعلى الاول يكون بابا من علم الاخلاق ، وعلى الثاني يكون بحثا من بحوث الفلسفة ، وسبباً من اسباب المعرفة ، وعلى اية حال فليس التصوف علما مستقلا بذاته .

ويبحث علم الكلام عن وجود الله وصفاته ، ونبوة الانبيـــاء وما يتعلق برسالتهم من المعـاجز . وتلقي الوحي ، ويبحث عن المعاد والثواب والعقاب والحسن والقبح،والجبر والاختيار ، وعن النفس وحقيقتها ومصدرها ومصيرها ويدافع عن الدين بالحجج والبراهين العقلية .

ويبحث علم الفقه عن احكام الله تعالى في افعـــال المكلفين من الوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة ،ويستخرج الفقيه هذه الاحكام من ادلتها المقررة في علم الاصول ، وقد تغلب عـــلم الفقه على سائر العـلوم الاسلامية ، فاذا قيل : فلان عالم دون قيد يفهم منه الفقيه في الاوساط الاسلامية ، بل ان الكثير من طلاب العلم الديني لا يعرفون للدين علماً غير الفقه واصوله .

ويبحث علم الاصول في ادلة الاحكام الشرعيـة ، اي ان الاصولي يستخرج الاحكام من الاصول الاربعة ، وهي الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، ولا يتجاوزها الى غيرها ، ولكن امتد الى علم الاصول نظريات فلسفية ، وتحاليل منطقية ، فيها من الدقة والعمق ما في اهم بحوث الفلسفة ، ومن تتبع عـــلم الاصول ، وتفهم التآليف الجديدة ، كرسائل الانصاري وكفاية الخراساني وتقريرات النائيني وجد فيها مناهج للبحث لا تقل في ضبطها ودقتها عن مناهج البحث الحديث [1]

ولا اعرف اول اصولي وجـــه هذا العلم توجيها فلسفياً ، وخلط اقوال الاصوليين باقوال الفلاسفة ، وايا كان فانه متقدم على عصر الغزالي ، لانه اشار في اول كتاب « المستصفى » الى هـــذا الخلط بقوله : « اختلط علم الاصول بعلم الكلام .. لغلبة الكلام على طبـائع الذين تكلموا في الاصول ، فحملهم

---

(١) اتمنى لو ان عالماً في الاصول يكتب بحثا مفصلا بعنوان « عـــلم الاصول والمناهج الحديثـــة » .

حب صناعتهم على خلطه بهذا الصنعة ، كما حمـــل حب اللغة والنحو بعض الاصوليين على مزج جملة من النحو بالاصول، فذكروا فيه من معاني الحروف ومعاني الاعراب جملا هي من علم النحو خاصة » .

ويبحث علم التفسير عن معاني كلام الله سبحانه في كتابه المنزل على نبيه المرسل محمد بن عبدالله (ص) .

ويبحث علم الحديث عن اقوال الرسول وفعله وتقريره ، وثبوتها بالنقـــل الصحيح .

فوائد العلوم الدنيوية

من فوائد العلوم الدنيوية انهـــا تساعد على الاحتفاظ بالصحة ، وبموارد العالم ، واستغلالها لصالح الانسان ، وتجعل العمل اكثر يسرا ، وتقرب البعيد وتوفر الراحة ، وتغير طريقة التفكير ، وتحل المشاكل الاقتصادية .

وقد خطت البشرية في هذا العصر خطوات جبارة الى الامام بسبب العلم، وتدخل بكل كبيرة وصغيرة في حياة الانسان منـــذ وجوده الى اخر يوم في حياته غنيا كان او فقيراً ، وبكلمة اصبح العلم ـ اليوم ـ قوة في كل ميـدان ، ومقياسا لتقدم الشعوب والامم .

فوائد العلوم الدينية

الدين بسيط جدا ، وواضح جـــدا ، بسيط بساطة الخير ، لانه هو الخير الذي يقول لك : لاتقتل .. لا تسرق .. لا تزن .. لا تكذب .. لا تظلم .. لا تتجسس .. لا تخن احدا .. لا تاكل الربا .. مد يد العون لكل محتاج اليك وبالتالي ، فان الدين يقوي صلتك بخالقك واسرتك وبالناس جميعا على اساس

الحب والتعاون ، ويحاسبك على كل خطيئة ترتكبها .

والعلماء الذين نتكلم عنهم في هذا الكتاب هم الذين يمثلون مبادىء الدين على اكمل وجه ، ويتنازلون عن حياتهم ورؤوسهم ، ولا يتسامحون بشيء من دينهم هم الذين لايتاجرون بالدين، ولا يتلاعبون بالعواطف، هم الذين لا يفهمون الدين على انه شكليات وخرافات واساطير،هم المتقون حقا والمتفقهون بالشريعة كما هي في كتاب الله وسنة رسوله .

سلمان الفارسي

بماذا نفسر تمرد الفرد على العادات والمعتقدات الاجتماعية الخاطئة ؟ . رجل واحد يكـذب آباءه واجداده في دينهم ومقدساتهم ، ويرفض معبود قومه ، وهم عشرات الملايين ؟.. وكيف يقع هذا ، والفرد جزء من كل ؟ ! والجزء محكوم للكل ، وخاضع لحتميته ؟.. ولكن هذا ما وقع بالفعل .

كان الفرس يعبدون النار ، وكان والد سلمان كاهنا يغذي النـــار بالحطب ليل نهار ، حتى لا يخمد لهيبها ، وحتى يكون الاله دائماً موجوداً بوجودها ، لان النار اذا خمدت ذهب الاله ، وبقي الكون بدون خالق يرعاه ، ويحرسه بعنـــايته .

ولكن سلمان منذ ان بلغ سن الادراك والتمييز ابى ان يعترف بالنـــار ، وقال لابيه : هذه النـــار انا اشعلها ، واذا تركتها بلا حطب تموت ، فكيف اعبد ما اهبه الحياة ؟!..

واوجس رئيس الكهنة خيفة من تمـــرد سلمان ، وخشي ان استمر في معارضته ان يذهب بجـاهه وسلطانه ، فعرض عليه منصبا رفيعا ، واغراه بالمال ، وطار والد سلمان فرحا بهـذا العرض ، والح على ولده بالقبول ، وقال له : ان جميع الشباب المتعلمين يتنافسون على هـــذا المنصب ، وان الناس سيحتاجون اليك ، ويملأونك بالذهب والفضة .

فقال سلمان : دع عنك هذا يا ابي ، ان الحطب الذي احضره من الغابة للحرق والرماد لا يمكن ان يكون الهاً .

ولما يئس رئيس الكهنة من اغراء سلمان قال لابيه : ان ابنك سيؤلب علينا الناس ، ويزول ما لنا من سلطان ، ولا يمكن ان نتركه ، فلا بد من قتله .

قال ابوه : اقتلني معه

قال الرئيس : ان ابنك وحده يجب ان يموت

قال الاب : ساجلد سلمان ، واحبسه هنا في المعبد ، واضع الحديد في قدميه ، واجعله ميتاً وهو حي ، واقيده بالسلاسل امامك ، واعطيك المفتاح لتضمن عدم خروجه .

قال الرئيس ساختبره بعد سجنه ستة اشهر ، فان كان مؤمناً تركناه ، وان كان غير مؤمن قتلناه .

واحضر الحداد ، فقيد سلمان بالسلاسل ، واخذ رئيس الكهنة المفتاح .

وكانت والدة سلمان قد انتقلت الى ربها ، وهو طفل ، فتعهدته عمة له ، ووهبت نفسها لتربيته ، واتخذته ابناً لها ، ولم تتزوج من اجله ، وكانت هذه العمة النبيلة ، تبكي وتسكب الدموع من اجل سلمان ، وتكاد لا تفارقه ، وهو في سجنه .

وفي ذات يوم قال سلمان لعمته : يا عمتاه اذا كنت تريدين مساعدتي حقاً فمهدي لي سبيل الهرب ، ان أبي مريض من اثر الصدمة ، وهو شيخ فانٍ ، ولن تطول به الحياة ، انه سيموت لا محالة ، وانا في السجن وسيلقي هؤلاء الكهنة

بي بعـد موته الى النسور .. اتفضلين ـياعمتاه ـ ان إقطع اربا ، وانا حي ؟!

فقالت : اجل ، أنهم لا يرضون عن قتلك بديلا .. وسافديك بحياتي ..ثم احضرت حداداً ، واغرته بالمال ، فكسر القيود ، وهرب سلمان ، وصادف خروجه من السجن سفر قافلة الى الشام ، فذهب معها ، واحبه رئيس القافلة لمـا رآه من صبره وصدقه وامانته .

ووصلت القافلة الى حمص ، وحطت فيها الرحال ، ولم يجـد سلمان اي وسيلة للعيش الا ان يقبل عرضاً من حاكم حمص على ان يخدمـه باجر معين ، وبعد شهرين مات الحاكم العجوز ، فاجتمع الناس يؤبنونه ويثنون عليه بالخير فوقف سلمـان وسط الجموع ، وقال باعلى صوته : يا اهل حمص اسمعوا مني ، ثم اصلبوني ، ان حاكمكم هذا كان ظالما ، فقد خزن الذهب وتركَكم جياعا ومعي الدليل ٤٠ جرة مليئة بالذهب ، في هذا المنزل ، واشار الى قصر الحاكم اني لا اهاجمه ، ولكن يجب ان اقول الحق .. ايها الناس انا اعرف كم تقاسون واذا كان الحاكم قد نهب اموالكم قبل وفاته فلا تقدسوه بعد مماته .. ايها الناس كم حاولت ان امنع نفسي من هذا الحديث ، ولكنها لم تحتمل الكذب والنفاق لقد ثار عليّ ضميري ، ووجدت صوتا قوياً يصيح في داخـلي ، ويقول : انت شريك الحاكم في الذنب اذا لم تقل الحقيقة .. وهذا هو الذهب اقدمه اليكم دليلا على ما اقول .

وما انتهى سلمان من خطابه حتى اخذ الناس جثة الحاكم ، وصلبوها على الخشبة ورموها بالحجارة .

وكان سلمان يتصل بالقسس والرهبـان يبحث معهم في الدين وشؤونه ، وكان قد سمع من احدهم ان نبياً يبعث في ارض العرب ، فاقام ينتظر الفرص الى ان مر رجال من تجـار العرب ، فصحبهم ، وسار معهم ، ولكنهم في

الطريق اعتدوا عليه ، وانتهبوا ما معه ، ثم اسروه ، وباعوه من يهودي في المدينة على انه عبد رق ، وكان النبي آنذاك في مكة يدعو الناس الى التوحيد وترك الشرك .

وبقي سلمان عند اليهودي يرعى غنمه تارة ، ويعمل في بستانه اخرى الى ان هاجر محمد الى المدينة ، فاسلم سلمان مع من اسلم ، ولما علم اليهودي باسلامه فقد صوابه ، واخذ في ضربه وتعذيبه .

وراى بعض الاصحاب الدماء تسيل من بدن سلمان ، وتملأ ثيابه ، فقالوا له : ما هذه الدماء يا سلمان ؟

قال : ليتها الدماء فقط ، انني ميت ، لقد قال لي اليهودي : ساذبحك اذا ذهبت الى محمد وانا لا استطيع الصبر عن رسول الله ، ولكن لا يهمني ان اقتل مادمت على الحق مؤمنا بالله وبمحمد بن عبدالله .

وكان سلمان قد كاتب اليهودي على ان يدفع له مبلغاً من المال ليحرره من الرق ، فاعانه رسول الله والمسلمون ، فتحرر واصبح مولى رسول الله .

ولما زحف الجيش الذي لم تعرف الجزيرة مثله من قبل بقيادة ابي سفيان لقتل النبي والاصحاب ، وهدم المدينة على اهلها اقترح سلمان ان يحفر الخندق ويتحصن المسلمون من ورائه ، فحفر ولم يستطع احد من اهل الشرك ان يقتحمه سوى عمرو بن ود،فارداه الامام علي قتيلا بضربة واحدة ، ولم يفكر بعدها احد في عبور الخندق مادام علي من ورائه يصرع كل من يحاول اقتحامه.

وفي ذات يوم دخل سلمان مجلس رسول الله ، فوجد وجهاء قريش ، فتخطاهم ، وجلس في الصدر ، فغلى الدم في عروقهم ، وقال له بعضهم : من انت ، حتى تتخطانا ؟!.

وقال له اخر : ما حسبك ونسبك ؟!..

قال سلمان : انا ابن الاسلام كنت عبدا فاعتقني الله بمحمد، ووضيعاً فرفعني بمحمد ، وفقيرا فأغناني بمحمد ، فهذا حسبي ونسبي ، والمسلمون اخوة ليس بينهم وجهاء وفقراء .. وليس الخير بالجاه والمال ، ولكن بالعلم والحلم والعمل الصالح .

فقال رسول الله : صدق سلمــان ، صدق سلمان ، من اراد ان ينظر الى رجل نوّر الله قلبه فلينظر الى سلمان .

ولما سمع الناس هذا من الرسول تنافسوا على سلمان كل يقول : سلمان منا.. فقال الرسول الاعظم : بل سلمان منا اهل البيت.

وحين بويع ابو بكر بالخلافة امتنع سلمان مع من امتنع عن بيعته ، وقال له : يا ابا بكر الى من تفزع اذا سئلت عما لا تعلم ؟.. وما هو عذرك فيتقدمك على من هو اعلم منك ، واقرب الى رسول الله ، وقدمه في حياته واوصاكم به بعد وفاته ؟..

وفي خلافة عمر سمعه يقول من على المنبر : ايها الناس الا تسمعون ؟

قال سلمان : اننا لا نسمع لك

قال عمر : لماذا لا تريد ان تسمع لي ؟

قال سلمان : بالامس جاء قماش من الشام ، وقسمته على المسلمين ثوبا ثوبا ، وانت الان ترتدي ثوبين ، فمن اين اتيت بالثوب الاخر ؟.

فصاح عمر : اين عبدالله بن عمر ؟ فقال عبد الله : لبيك.

قال له ابوه : نشدتك الله . هذا الثوب الثاني اليس ثوبك ؟

قال عبد الله : نعم ، لقد طلبته مني لتظهر به في المسجد ، ثم تعيده الي .

وعندها قال سلمان لعمر : الان تكلم ، فاننا سامعون .

قال عمر : يا سلمان انتظرني بعد ان اتم حديثي مع المسلمين ، واختلى عمر بسلمان ساعة ، فسأل ابو الدرداء سلمان عما يريد الخليفة منه .

فقال سلمان : انه يريدني لشيء ما اكرهه الى نفسي .. لقد القى على كاهلي عبئاً ثقيلا .. ولاني امارة المدائن ، وانا لا اريد الامارة .

قال ابو الدرداء : اترفض هذا المجد .. الا تريد ان تحكم مدائن كسرى عاصمة الفرس .. انه لشرف عظيم .

قال سلمان : اتدري ما الظلمات يوم القيامة .. انها ظلم الناس لبعضهم البعض في الدنيا .. ان العدل اصعب ما في الحياة .. انني خائف ، خائف من نفسي ان احملها اكثر مما استطيع ان اواجه به الله .. ان الامارة تدفع بالانسان الى الدنيا ، وتلهيه عن الاخرة .

قال ابو الدرداء : لا تكن متشائماً ، فلقد اوتيت العلم والدين والزهد

قال سلمان : اني ادعوا الله ان يقويني لمواجهة هذا الامتحان .

ودخل سلمان المدائن اميراً ، وهو يحمل زوجته على بعير ، وعليه ثياب بالية ، ومعه قرآن ودواة وعصا وابريق ، ولا شيء غير هذه ، ولم يعرف الناس اميرهم ، حتى عرفهم بنفسه ، فدهشوا ، وتملكهم العجب ، لانهم لم يألفوا هذا من حاكم .

واول عمل قام به الامير ان جمع الفقراء والعمال وارباب الصنائع ، وخاطبهم قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم .. اما بعد ، فقد جمعتكم يا فقراء المدائن وصناعها

لامر هام .. اعلموا ان الاسلام حرم كنز المال ، وبخس الاجير قدره .. وان للذهب بريقه ، وللمال سلطانه .. ولقد دعوتكم انتم ايها الصناع لاقول لكم انني معكم ، وبابي دائماً مفتوح لكم .. واريد من اهل كل حرفة ان يختاروا شيخاً لهم ، فاذا وقعت مظلمة على عامل او فقير منكم فليشك لشيخ حرفته. واعلموا ان الله يحب ان يأكل الفرد من عمل يده .. لذلك ساكون واحدا منكم ان خراجي كله للفقراء ، وهو خمسة الاف درهم . وساعمل في صنع الخوص واكل مما تكسبه يدي .

فارتفعت الاصوات من كل جانب : عجيب ايها الامير .. عجيب هذا ماذا نسمع ؟..

قال سلمان : هذا هو الاسلام الصحيح

هذي هي حياة سلمان ، كما جاءت في الجزء السادس من البحار للمجلسي والجزء الخامس والثلاثين من اعيان الشيعة للأمين، وفي تمثيلية من ثلاث حلقات للاستاذ احمد زين المصري استخرجها من اكثر من ثلاثين مرجعا تاريخيا — كما قال — [1] ونشرها متسلسلة في جريدة اخبار اليوم المصرية ، تاريخ ١٧ و٢٤ شباط و٣ اذار من سنة ١٩٦٢ ، ونقلت الكثير منها بالحرف الواحد ، بخاصة القسم الاخير .

والان انتقل بالقارىء الى الانطباعات واستخراج العبر والعظات من سيرة هذا العظيم وحياته وانا اشعر بضآلة ما اقدمه في السطور التالية :

١ — رفض سلمان ان يعترف بغير الله الواحد الاحد ، لان نفسه بطبيعتها

---

(١) مهد الكاتب لتمثيليته بمقدمة جاء فيها : «هذي حياة سلمان الفارسي كما يرويها اكثر من ثلاثين مرجعا تاريخيا . قصة رجل قضى حياته يبحث عن الله . انها قصة من الحياة وقائعها حدثت بلا رتوش ولا تزويق » .

لا تقبل الباطل ، وان دان بـــه اهل الارض ، ولا تؤمن الا بالحق ، وان انكرته الخلائق ، ذلك ان سلمان ليس بالرجل العادي الذي ينساق مع منطق الجموع ، وانما هو الملاك الذي تنبع تصرفاته من حس الواجب ، ولا يتحكم في عقله وعواطفه اي منطق سوى منطق الحق والواقع ، وهو العلم الذي لا يسير مع الناس اذا ساروا في اتجاه معاكس ،وهكذا العظماء يمتازون بشخصية مستقلة توجه سلوكهم .

٢ ان سلمــان غير معصوم من فعل الشر ، ولكنه لا يفعل الا الخير ، ولا يسكت عن المبطل · قوياً كان او ضعيفاً ، فقـــد انكر على ابي بكر – ومعه الحول والطول – ان يتقدم الى الخلافة ، وفي المسلمين مثل عــلي بن ابي طالب ، واعلن كلمة الحق في حاكم حمص ، وقـــال للجموع التي تقدسه اصلبوني ..فان نفسي لا تتحمل الكذب والنفاق ، وكثيرون هم الذين ينادون بالحق والعدالة والمساواة، ولكنهم ينادون بهذه المباديء ما اتفقت مع منافعهم الشخصية ، واذا ما اصطدمت معها تنكروا لها كالتاجر يرحب بك ، حيث يامل ان يبيعك سلعته ،فاذا تاكد انك في غنى عنها تجاهلك ، واعرض عنك.

اما سلمان فانه يقول الحق ، ويعمل به ، ويدعوا اليه ، وان جر عليـــه النكبات والويلات ، وقد تحمل الكثير منها بصبر وشجاعة من رئيس الكهنة في فارس ، ومن اليهودي في المدينة .

٣ – اما موقفه من الخليفة الثاني ، وقوله له : « لانسمع لك » فنقدمه الى من ارضى المخلوق بسخط الخالق رغبة في الدنيــا وحطامها .. واقسم لولا وجود سلمان وامثاله في اصحاب رسول الله (ص) لما كان للاسلام هذه العظمة وهذا التاريخ ، ولو سرنا نحن على مبدأ سلمان من مناصرة الحق لما بلغنـا من المذلة والخسف هذا المبلغ ، واذا قصر غيرنا في واجباته فلماذا نجبن نحن حمـلة

الكتاب والسنة – عن الجهر بالحق ، ونسكت عن الظالمين الطغاة ؟!

٤ – انتقد سلمان حاكم حمص ، لأنه كنز الذهب ، وترك الرعية جياعاً، واعترض على الخليفة الثاني لانه لبس ثوبين دون المسلمين ، وكان سلمان آنذاك محكوماً غير حاكم ، ومامورا لا امرا ، وماذا فعل بعد ان حل اميراً في ايوان كسرى ، وخضعت لحكمه سبع مدن ، واصبح القائد الاعلى لامراء الثغور والجند المرابط على الحدود ؟.. هل تجاهل ماضيه ، وتنكر لمبادئه ، وانقلب على الفقراء والمستضعفين يضطهدهم ويستغلهم بعد ان كان لهم مناصراً ومؤازراً ، كما هو شان الساسة المحترفين ، وعشاق الالقاب والمناصب ؟..

حاشا سلمان الخير الذي تشتاق اليه الجنة شوقها للانبياء والصديقين ، حاشا من اوتي علم الاولين والاخرين ان تغريه الامارة وحلاوتها .. ان نفسه اعظم من شهوة الحكم وفتنة السلطان .. ولقد اخذها بعد الحكم باشق مما كان ياخذها به قبل الحكم ، وعظم شعوره بالمسئولية اضعافا مضاعفة ، وصرفه هذا الشعور عن كل مطمع الا عن مقاصد الخير ، والعمل لخدمة الناس ، فتفقد احوالهم ، وسهر على مصالحهم ، وقاس نفسه باضعفهم ، فاقبل ، وهو امير على سف الخوص ، واكل الشعير ، والاستغناء به عن لذيذ المآكل والمشارب ، وتواضع للفقير والضعيف ، وساوى بين الكبير والصغير ،ونهج في سيرته منهج محمد وآله ، لانه منهم بشهادة الرسول الاعظم صلى عليه وآله .

انتقل سلمان الى رضوان الله ورحمته في خلافة عمر ، وقيل في خلافة عثمان سنة ٣٦ هـ ، وعمره ٢٥٠ سنة وقيل ٣٥٠ .

العبرة والعظة

كان في المدائن ايوان لكسرى وحاشيته ، وكان من عجائب ابنية الدنيا ، ومن احسن آثار الملوك ، بناه كسرى في نيف وعشرين عاما من الرخام

والاحجار الكريمة ، وكان فيه من الصور والنقوش ما ادهش العقول ، حتى قالت العامة : انه من صنع الجن لا من صنع الانس ، وقد حـــاول المنصور هدمه فعجز ، فقيل له : سيتحدث الناس انك عجزت عن هدم ما بناه غيرك وقد تغنت الشعراء في عظمته ، واطال المؤرخون العرب ، والكتـاب الافرنج في وصفه ، وتدل آثاره الموجودة الى اليوم على صدق ما قيل عنه .

ولما فتح المسلمون المدائن اخذوا ما فيه ، وتركوه لحوادث الدهر ، فكان اعرابي اسمه عتاب العامري يرعى غنيمات له ، فاذا جاء الليل اواها في هذا الايوان ، فكانت تصعد الى سرير رخام كثيراً ما كان كسرى يجلس عليه ..

فسبحان الذي جعل لكل شيء اجلا موقوتا ، وامداً محدوداً . ولايدوم الا وجهه الكريم .

ابو ذر

سلمان وابو ذر

سلمان وابو ذر كلاهما رفض عقيدة قومه ، وتركهم وما يعبدون من دون الله ، وكلاهما طلب الحق ، وهاجر للبحث عنه ، حتى وجده عند رسول الله (ص) ، وكلاهما تعرض لانواع المشاق والمحن في سبيل مبدأه وعقيدته وكلاهما اخلص للاسلام ، وجاهد في سبيله بعد الرسول ، تماماً كما كان في زمن الرسول وكل منهما كان رأساً من رؤوس الصحابة ، وشيخا من شيوخهم ، وقد اتفق المسلمون جميعاً على تقديسه واجلاله ، فسلمان من اهل البيت بشهادة رسول الله وهذا شرف لم ينل مثله احد من المسلمين صحابياً كان او غير صحابي ، وابو ذر في السماء اعرف منه في الارض بشهادة جبرائيل ، اما حديث « ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء على ذي لهجة اصدق من ابي ذر » فلا يختلف في صحته اثنان ، وقد بلغ من الصدق مبلغ آي الذكر الحكيم.

من كذّب ابا ذر فهو الكاذب

وان قال قائل : ان ثناء النبي على ابي ذر بالصدق ، وعلى سلمان بانه من اهل البيت لا يستدعي افضليتها على سائر الاصحاب ، فقد اثنى النبي على

افراد من اصحابه ، مع العلم بانهم ليسوا بافضل من غيرهم .

قلنا في جوابه : ان صح هذا في غير الصدق ، وغير الانتساب الى اهل البيت فانه لايصح فيهما بحال ، لان معنى انتساب سلمان لآل الرسول ان الله سبحانه قد اذهب عنه الرجس،وطهره تطهيراً ، ومعنى شهادة النبي بالصدق لابي ذر انه صادق في جميع افعاله واقواله ، وان من كذّبه فهو كاذب ، ومن عانده فهو مبطل ، وانه لو وقف اهل الارض بكاملهم في جانب ، ووقف ابو ذر في جانب لكان ابو ذر على الحق ، واهل الارض كلهم على باطل ، ومن هنا استدل الامامية من جملة ما استدلوا به ـ على افضلية علي واوليته بالخلافة بموقف ابي ذر وسلمان من بيعة ابي بكر ، ولولا شهادة الرسول لهما بالصدق والتطهير لما كان للاستدلال من وجه .

ابو ذر ومناة

عاش ابو ذر غريبا بين قومه ، كما عاش سلمان ، فقد كان بنو غفار يعبدون الاصنام كغيرهم من قبائل العرب ، وكان معبودهم الاكبر صنم يدعى مناة ، ورفض ابو ذر ان يعترف بالاصنام ، كما رفض سلمان من قبل ان يعترف بالنار وكان يقول : ما مناة ؟.. وهل هو الا حجر لا يدعو لغي ولا رشد ؟.. وذهب ذات يوم الى مناة على غفلة من الناس ، ورماه بحجر ، وقال له : لا حول لك ولا قوة ، فعلام تعبد ؟.. تماماً كما فعل ابراهيم الخليل .. (حجر اصم كغيره من الاحجار يبني الانسان منها مسكنه ، ويجعلها اثافي لقدره ، حجر ينحته الانسان بيده ، ثم يتخذه ربا ؟.. كيف ؟.. وهل يكون المخلوق اشرف واعظم من الخالق ؟..

صلاة ابي ذر

ادرك ابو ذر هذا بفطرته النقية الصافية ، قبل ان يتصل بالرسول ،وقبل

ان يسمعه من اي انسان .. لقد فكر وبحث عن الحقيقة ، فانتهى به التفكير الى الايمان بان خالق الكون لا بد ان يكون اعظم من الكون ، وانـه لا اله الا هو لا شريك له ، وانه احق بالعبادة من مناة ومن العزى واللات ، فكان وهو في الجاهلية الجهلاء - يتوجه حيثما يوجهه الله ، الى الجنوب او الشمال ، الى المشرق او المغرب ، وينقطع الى الله سبحانه ، ويرفع يديـه الى السماء يدعو ويتضرع بصوت خاشع قانت .

قال ابوذر : صليت لله قبل ان القى رسول الله بثلاث سنوات .. والصلاة في لغة العرب الدعـاء في جميع اشكاله وصوره . فقيل له : لمن كنت تصلي ؟ قال : لله ، اتوجه اليه حيث يوجهني .

وفي سيرة ابي ذر شاهد عدل ، ودليل صدق على ما قاله العلماء والفلاسفة من ان العاقل لا يعذر بحال في امر التوحيد والايمان بان للكون مدبراً حكيما ويعذر فيما عدا ذلك لاسباب تخرج عن مقدوره .. ومن هنـا حث القرآن الكريم الناس على ان يستعملوا عقولهم ليعرفوا الله عن طريقها .

شباب هذا العصر

ونقف قليلا مع شباب هذا العصر الذين استخفوا بعقيدة الآباء والاجداد واتخذوا اللامبالاة مبدأ لهم وشعـارا ، نقف معهم لنسألهم : هل حاولتم ولو مرة واحدة ، ان تبحثوا وتدرسوا دين قومكم بتجرد ، وترجعـوا الى كتب العقائد التي تعرض الادلة على صحة هذا الدين ، وبعد الدرس والبحث تبين لكم بالدليل والبرهان ان قومكم في ضلال .. او انكم انكرتم وسخرتم لا لشيء الا لانكم من الشباب المثقف .. واذا كنتم لا تهتمون بالاشكال ، ومظاهر الاشياء ولا تعتنون الا بالجوهر ، ولا تقبلون اية فكرة الا بعد الجدال والنقاش .. فهل فكرتم وناقشتم الاخصاء والعلماء ، او جحـدتم وانكرتم بدون تأمل

وتفكير ؟.. وبالتالي ، فمن هم الجهلاء المقـلدون ؟.. الذين اعتمدوا في دينهم وعقيدتهم منطق العقل ، والفوا الكتب وانشأوا الجـامعات لذلك ، او الذين جعلوا مبدأهم عدم الاكتراث واللامبالاة بالدين وكل ما يتصل به ، وان كان حقاً ، لا لشيء الا لان اسمه دين ..

لقد رفض ابو ذر ديانة قومه بعد التفكير والتـأمل ، وبحث عن الحق ، فاهتدى اليه ، وآمن به ، اما شبابنا ، او الكثير منهم فعـلى العكس رفضوا الحق والهداية ، وتخبطوا في الجهل والغواية .

وليس من غرضنا ان نقارن بين انكار ابي ذر على قومه ، وانـكار هؤلاء الشباب،كلا ، وانما هدفنا الاول ان نتخذ من سيرة ابي ذر مثلا اعلى في البحث عن الواقع يحتذيه الشيوخ والشباب ، وكل طالب للحق .

اسلام ابي ذر

بلغ ابا ذر مبعث رسول الله في مكة ، فارسل اخاه انيسا يستطلع اخبار محمد ، ويأتيه بالخبر اليقين ، فرجع ، وقال له : رأيت رجلا يامر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر .

فقال له ابو ذر : ما شفيتني فيما اردت .. ثم توجـــه بنفسه الى مكة ، وحين بلغها اتى المسجد يلتمس النبي وهو لا يعرفه ، وكره ان يسأل عنه ، حتى ادركه الليل، فاضطجع ولما رآه علي بن ابي طالب قال له : كأن الرجل غريب ؟ قال : نعم . فانطلق به الى المنزل ، وبقي عنده ثلاثة ايام ، وبعدها سأله عما جاء به ؟.. فحدثه بخبره ، فانطلق به الامام الى رسول الله ، وحين رآه حياه بتحية الاسلام ، وكان اول من حيا رسول الله بها .

وعرض النبي عليه الاسلام ، فاسلم ، ولم يسأله معجزة ، ولا دليلا ، لان

الدعوة الى التوحيد والصدق والعدل والاخـــاء والامانة هي نفسها الدليل القاطع عند ارباب العقول النيرة ، والضمائر الحية من امثال ابي ذر . امـــا المعجزة كانقلاب العصا تعبانا ، واحياء الموتى ، وتكلم الحصى ، وما الى ذلك من الخوارق فليست منهجاً من مناهج المعرفة ، كي يبحث عنها ويعتمدهـــا اهل العلم والوعي ، وانما هي ادلة تقنع العامة الذين تراكم الصدأ على عقولهم ، حتى عميت عن تمييز الحق من الباطل .

وكان ابو ذر الرابع او الخامس ممن سبق الى الاسلام ، فاول من اسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال علي ، ثم اخوه جعفر ، ثم زيد بن حارثة ، ثم ابو ذر (الجزء الاول من سفينة البحار للقمي . مادة سبق) وخرج ابو ذر من عند النبي ، واتى المسجد ، ونادى باعلى صوته : يا معشر قريش اني اشهد ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله . فثاروا عليه ، واشبعوه ضرباً ، فانقذه العباس عم النبي ، ثم عاد من الغد الى مثلها قويا رابط الجأش ، فمالوا عليه بالضرب واللكم ، فانقذه العباس ثانية ، ولما رجع النبي امره بالعودة الى قومه ، وان يدعوهم الى الاسلام ، ويبلغهم عنه رسالته ، فانطلق الى بني غفار ، وما زال بهم ، حتى اسلم اكثرهم .

ابو ذر والتهلكة

ونتساءل : كيف جابه ابو ذر قريشاً ، وهو غريب اعزل لا يملك ايـــة وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ، جابه قريشا في ديارهم ، ولهـــم الحول والطول .. وهل يجوز له ان يلقي بيديه الى التهلكة ؟!..

الجواب

ان اصحاب الرسالات التي يبغون لها الحيـــاة والبقاء ولا يهتمون بانفسهم مهما يكن المصير ، وانما همهم الاول الرسالة نفسها ، فهم يضحـــون بالنفس

والنفيس ، ويقدمون على المخاطر والمخاوف بقصد انتشار الدعوة ، واحيائها ولو بعد حين .. وابو ذر صاحب رسالة ، ورسالته ان ينتشر الاسلام ، ورأى ان موقفه هذا ، وتحديه لقريش –وهو الاعزل المستضعف– يشجع المستضعفين على اعتناق الاسلام ، واتباع الرسول ، فاقدم ولم يبال بما يكون ، وبالفعل تحفز للاسلام وتسابق اليه كثير من المستضعفين بعد ابي ذر ، كعمار وابيه ياسر وامه سمية واخيه عبدالله، وصهيب وبلال وخباب.. فقد اسلموا وعذبوا في الله، ولاقوا من البلاء اشد مما لاقاه ابو ذر.

ابو ذر وعثمان

بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان على ان يعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، ويتبع سيرة الشيخين ابي بكر وعمر ، وحين تمت له البيعه تجاهل كل شيء ، وتنكر لرغبات المسلمين ، وعمل بوحي من مروان بن الحكم ، وكنز الاقوياء والمقربون اليه الذهب والفضة .. فانكر ابو ذر على عثمان ، واخذ يحدث الناس ببلاغته وفصاحته عن الرسول وسنته ، ويقول : واعجبا لهؤلاء يتكالبون على الدنيا بعد ان رأوا النبي ، وسمعوا منه ، وحاربوا معه الذين يكنزون الاموال ، ويستغلون الضعفاء والمساكين .

وساومه عثمان ، وبذل له العطايا على السكوت ، فابى ورفض ان يهضم حق انسان ، ابى الا العدل والمساواة بين الجميع ، والا العمل بكتاب الله ، وسنة نبيه .. وكان ابو ذر لا يملك من الدنيا كثيرا ولا قليلا ، ولا يطمع في شيء الا ان يسلم له دينه وايمانه ، والا ان يعم العدل والأمن .. ولما ابى ابو ذر الا الجهر بالحق طلبه عثمان ، وقال له الى متى تحرض الناس علي ؟

قال ابو ذر : وكيف ؟..

قال عثمان : انك تقرأ في المسجد : والذين يكنزون الذهب والفضة.

قال ابو ذر : اتنهاني عن قراءة القرآن ؟. والله لأن ارضي الله في سخطك احب اليّ من ان اسخطه في رضاك .

ودخل عليه مرة ، وعنده كعب الأحبار ، فقال عثمان لكعب : ايجوز للامام ان ياخذ من هذا المال ؟

قال كعب : لابأس بذلك .

فالتفت اليه ابو ذر ، وقال : يا ابن اليهودية انت تعلمنا ديننا ؟

ولدينا اليوم كثيرون من امثال كعب يعينون الظالم على ظلمه ونسأل الله سبحانه ان يجعل فينا من يسير على طريق ابي ذر .

ونفى عثمان ابا ذر الى الشام ليستريح منه ، ولما بلغها وجد الطغيان والاستبداد يتجسد في معاوية ، ورأى من التبذير والاسراف ما رآه عند الخليفة في المدينة ،فانكر على معاوية ، كما انكر على عثمان ، وحاول ان يسكته بالمال ، كما حاول عثمان من قبل ، ولكن على غير جدوى .. فضاق به معاوية قائد الاقطاعيين والمستغلين ، واوجس الاغنياء خيفة منه حين رأوا استماع الفقراء له ، وولعهم به ، فاعيد الى المدينة بامر من عثمان ، فنفاه الى الربذة ، حيث لا شيء سوى المرض والفقر ، فتمرض بها ، ومات جوعاً ، وكانت قسوة عثمان على ابي ذر من اشد مثالبه ، واقوى المطاعن عليه .

هل ابو ذر اشتراكي

اصحيح ان ابا ذر اشتراكي ؟ ولماذا نسبت اليه الاشتراكية اذا يكن لم اشتراكياً ؟ ثم ما هو السبب الذي جعل من ابي ذر النموذج الاكمل للثائر ؟

الجواب

ان ابا ذر لم يستجب لمبدأ او فكرة ، او شيء سوى الاسلام ، ولا

رأسمالية ، ولا اشتراكية في الاسلام بمعناها المعروف اليوم [١] لان الاشتراكية تلغي الملكية الفردية ، والاسلام يقرها ، والخمس والزكاة يدخلان في العبادت وامر اخراجها من المال موكول للاغنياء انفسهم ، فنسبة الاشتراكيـة لابي ذر خطأ واشتباه .

اما سبب هذه النسبة فهو عثمان بن عفان ، وعلى الاصح ايثاره الاهـل والمقربين على المسلمين .. لم يعهد ابو ذر ان احدا من الاصحاب كنز الذهب والفضة ، واقام القصور الشامخة ، واقتنى الخيول والعبيد والاماء ، والنـاس من حوله جياع عراة ، ولما رأى ذلك في عهد عثمان انكر وثار على التفاوت في التقسيم الذي ادى الى تكديس المال في ايدي القلة وفقر الاكثرية الغالبة.. فوقف يناصر الفقراء ، ويطالب بحقوقهم ، فاتخذ الاشتراكيون من موقفـه هذا دليلا على اشتراكيته [٢] وذهلوا عن ان الثورة على الظلم ليست وقفـاً على الاشتراكيين ولا الشيوعيين ، فليس من الضرورة في شيء ان يكون الانسان اشتراكيا او شيوعياً ، بل ولا مسلماً اذا طالب بانصاف العامل والفـلاح ، وتطبيق العدالة والمساواة ، ويكفي لذلك كله ان يشعر بالمشاركة الوجدانية بينه وبين اخيه الانسـان .

اما السر في ان ابا ذر النموذج الأكمل للثائر على الباطل ،فيكمن في انـــه

---

(١) اوضحت ذلك في فصل مستقل بعنوان « لا رأسمالية ولا اشتراكيـة في الاسلام » من كتاب « فضائل الامام علي »

(٢) حين جاء عبد الناصر باشتراكيته حشد الاذاعات والصحف لتأييدها ، فعصر كتاب مصر الادمغة واخذوا ينقبون في تاريخ المسلمين عن الشواهد يستخرجون منها ما يعزز هـــذه الاشتراكية ، فكان من نتيجة ذلك ان كتب الاستاذ احمد عباس صالح مقالا عن ابي ذر ، نقلته وعلقت عليه في كتاب فضائل الامام بعنوان « الشيعة والمنصفون » وكتب الاستاذ احـــد زين مقالا عن سلمان الفارسي لخصته في الفصل السابق من هذا الكتاب ، وهكذا يرجعون الى رجال الشيعة حين يحاولون الاعتصام بالمثل الانسانية ، ومباديء الخير ، واسباب التقدم .

النموذج الاكمل للمؤمن الحق .. ان الثورة على الباطل لا تنفك عن الأيمان الخالص بحال ، وان اختلفت بحسب الايمــان شدة وضعفاً تماما كالتضحية من اجل المحبوب تأتي بقدر الحب .

وبالنهاية ، فان هذا الخلود ، وهذه العظمة لأبي ذر عند الله والنــاس المسلمين وغير المسلمين لا تستند الى علمه وصحبته فحسب ، بل هناك عوامل اخرى منها زهده في الدنيا ، واخلاصه لعقيدته ، وجهاده في الله ، وقسوته على الجور واهله .

وقد انفق اهل التاريخ والسير على ان ابا ذر من شيعة علي ، وليس هذا بعجيب ، وانما العجيب الغريب ان نحب الصالحين من امثــال ابي ذر ، ولا نعمل باعمالهم ، وان نبغض المسيئين ، ونحن منهم .



ابان بن تغلب

ان قصة ابان بن تغلب هي قصة الصدق والامـــانة ، الصدق في الحديث والدين والعلم والعمل ، قصة رجل اتفق السنة والشيعة على امانتـه وتوثيقه ، والاخذ بروايته ، قصة عالم روى احاديث النبي عن اهل بيته ، وكان فيهـا صادقا مصدقاً .

ومن اراد ان يعرف رجلا ينفر بطبعه عن كل ما يشين ، بخاصة رذيـلة الكذب فليقرأ ما جاء بحق ابان من الثناء ، فلقد اخذ بحديثه خمسة صحاح من الصحاح الستة، ووثقه الامام أحمد بن حنبل وابن معين وابو معين وغيرهم من شيوخ السنة ، وقال عنه الذهبي الدمشقي : « هو شيعي جـــلد ، ولكنـــه صدوق » وليس من شك ان الدين لا ينفك عن الصدق بحال ، ومن هنا اعتقد العوام الصدق في جميع رجال الدين ، حتى يثبت عندهم العكس .

وقال الامام الصادق : ان ابانا سمع مني حديثا كثيراً ، فماروواه لـكم عني يروي وقال له الامام الباقر : اجلس في مسجد المدينة ، وافت الناس ، فاني احب ان ارى في شيعتي مثلك .

يفخر العـــالم بكتاب يؤلفه ، او بنظرية يكتشفها ، او بآلة يصنعها ،

ويفخر الامام بالعلماء المخلصين الصادقين ، يفخر ويعتز بابان وامثاله من الذين اضاءوا طريق الانسانية ، بنور العلم والايمان وليست شهادة الامام لأبان كالشهادات والاجازات التي يمنحها شيخ لاخر أو استاذ لتلميذ من تلامذته ، والتي هي اشبه بشهادة الانسان لنفسه ، وانما هي شهادة الحق من معدن الحق ، هي الحكم الفصل ، لا شهادة عدل .

وغريبة الغرائب ان يشهد الامام الصادق لابان وامثاله ، ويشهد بعض الشيوخ لمن نعرف ، لاعتبارات خاصة ، ثم يزعم انه ينوب عن الصادق ، ويمثله في احكامه وشهاداته .. ومهما يكن ، فان قول الامام لأبان احب ان ارى في شيعتي مثلك يكشف عن حقائق يجهلها كثيرون ، منها ان مبدأ التشيع هو التقوى والصلاح ، وان ائمة اهل البيت قد عملوا جاهدين ، ليكون شيعتهم مثلاً اعلى لهذا المبدأ ، قال الامام الباقر :

والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله واطاعه ، وما كانوا يعرفون الا بالتواضع والتخشع والامانة والانابة ، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين ، والتعهد للجيران من الفقراء واهل المسكنة ، وكف الالسن عن الناس الا من خير .

ومنها ان الهدف الذي كان يعمل اهل البيت من اجله هو المحافظة على الاسلام ، وانتشار رسالته ، والاستجابة لدعوته .

ومنها ان الذين تهجموا على شيعة اهل البيت بالافتراءات والاكاذيب انما تهجموا وافتروا على الاسلام بالذات ، وعلى الملايين الذين اتخذوا شعارهم ومبدأهم العمل بكتاب الله وسنة الرسول .

ولنستمع الان الى ابان ، وهو يحدد معنى الشيعة ، قال لرجل يدعى « ابو البلاد » : اتدري يا ابا البلاد من هم الشيعة ؟. أنهم الذين اذا اختلف

الناس عن رسول الله اخذوا بقول علي ، واذا اختلفوا بقول علي اخذوا بقول جعفر بن محمد .

هذا قول من اعتمد الشيعة اقواله ، وحفظوها عن ظهر قلب ، ودونوها في كتب العقائد والتشريع ، واحتجوا بها على ما يدينون ويؤمنون ، ومع ذلك يزعم المفترون بان الشيعة يغالون ، ويزيغون عن الاسلام ، ويقولون بتحريف القرآن . ويهون الخطب ان حكاية الشيعة مع هؤلاء هي حكاية الصادق مع الكاذب ، والحرة مع العاهرة ، والامين مع الخائن .. ان الشيعة كما قال ابان : يعملون بما ثبت عن الرسول ، وطريق الاثبات عندهم اجماع الرواة ، واذا اختلفوا فهم مع علي ، لانه مع الحق ، والحق معه يدور كيفما دار ، ولانه اعلم الصحابة بدليل انهم كانوا يرجعون اليه في الفتيا والقضاء ولم يرجع الى واحد منهم .

وجاء شاب الى ابان ، وقال له : يا ابا سعيد اخبرني : كم شهد مع علي بن ابي طالب من اصحاب النبي ؟. [1]

فقال له ابان : كانك تريد ان تعرف فضل علي بمن تبعه من اصحاب رسول الله .

قال الشاب : هو ذاك .

قال ابان : والله ما عرفنا فضل الاصحاب الا باتباعهم علياً .

يشير بقوله هذا الى الحديث الشريف : « يا علي لا يحبك الا مؤمن ، ولا

---

(١) ان كان سبب المتابعة السبق الى الاسلام فعلي اسبق ، وان كان العلم فهو الاعلم ، وان كان التقى فهو الاتقى ، وان كانت القرابة فهو الاقرب ، وان كانت الصحبة فهو اشد الاصحاب اتصالا بالرسول ، واحبهم اليه ، وقد اثبتنا ذلك بالارقام في كتاب « فضائل الامام علي » .

يبغضك الا منافق ، فعلي هو الحد الفاصل بين المؤمنين والمنافقين ، تماماً كالسجود لآدم الذي فصل بين الملائكة والشياطين . . لقد امر الله الملائكة ان يسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر ، فجعل الله سبحانه من السجود لآدم فاصلاً بين الملائكة والشياطين ، وكذلك جعل حب علي مقياساً للايمان ، وبغضه مقياساً للنفاق .

وكان ابان اذا دخل المدينة توقضت اليه الخلق ، واخليت له سارية الرسول ، فيتحلق الناس حوله ، يحدثهم ، ويقول : حدثني جعفر بن محمد . وعابه عائب على روايته عن الامام الصادق ، فقال : كيف تلومونني في روايتي عن رجل ، ما سألته عن شيء الا قال:قال رسول الله .

مات ابان سنة ١٤١ ه،وما زالت احاديثه حجة متبعة عند السنة والشيعة، والسر لهذا الخلود يكمن في صدقه اولا وقبل كل شيء، هذا ، مع العلم بتقدمه وعلو مكانه في التفسير والحديث والفقه والادب واللغة والنحو ، ولكن كم من عالم ترك ونبذ لعدم الثقة بصدقه وامانته ، وفي الحديث عن الامام الصادق : « لا تنظروا الى طول ركوع الرجل وسجوده ، فان ذلك شيء قد اعتاده ، فلو تركه استوحش ، ولكن انظروا الى صدق حديثه واداء امانته . اذن ، قول الامام لابان احب ان ارى في شيعتي مثلك يرتكز على صدق ابان وامانته ، واذا احب الامام ان يكون في شيعته مثل ابان فانه يكره — ولا شك — ان يكون فيهم مثل فلان وفلان .

وفي النهاية ان ابانا في علمه وصدقه لم يؤد واجباً خاصاً اتجاه فحسب ، وانما ادى واجباً عاماً اتجاه الشريعة وصاحبها والناس اجمعين .

العلامة الحلي

هذا قبس من حياة رائد من رواد الحق ، وحـام من حماته ، لا يعرف التاريخ له مثيلا في هذا المضمار بعد الانبياء والأئمه الاطهار ، فلقد دافع هذا العظيم عن مبدأ تظاهرت عليه قوى الشر ، وحاربت اتبـاعه بكل سلاح ، بالافتراءات والدعايات الـكاذبـة ، وبالسجن والتشريد ، ونصب المشانق ، وقطع الايدي والارجل، وسمل الاعين ، وبكل نوع من انواع التنكيل، حتى دفن الاحياء تحت الارض [١]

دافع عن الحق بمنطق العقل ، لا بقوة السلاح ، واخرس كل مبطل ومعاند واحدث انقلابا في الآراء والمعتقدات .. لقد تحدى هذا العظيم الكبـار من علماء المذاهب وافهمهم بالحجج القاطعة ان خلافة الرسول الاعظم (ص) هي حق لعلي بن ابي طالب (ع) ، وانهم على باطل بجمودهم على أئمـه المذاهب الاربعة ، فلم يسعهم الا الاذعان والتسليم .

وملخص الحكاية ان ملوك المغول بعد ان دخلوا في الدين الاسلامي اتخذوا لهم اعواناً وانصاراً من علماء المسلمين وامرائهم على اختلاف مذاهبهم ، فكان

---

(١) اقرأ كتاب « الشيعة والحاكمون » للمؤلف .

علماء كل مذهب يغرون الحاكم المغولي بالدخول في مذهبهم ، وينفرونه من المذاهب الاخرى ، فاعتنق قازان خان مذهب التشيع وبقي الى ان توفي ، فقام مقامه اخوه السلطان محمد الملقب بخدابندة ، فمال الى مذهب الحنفية الى ان جاء نظام الدين عبد الملك من مراغة الى خدمة السلطان ، وكان عالماً شافعياً ماهراً في المعقول والمنقول ، فعينه قاضي القضاة ، فاغتنم نظام الدين الفرصة ، واستمال السلطان الى الشافعية ، واخذا يناظر علماء الحنفية في مجلس السلطان ، ويفهمهم بحججه وادلته ، فاقتنع السلطان ، واعتنق مذهب الشافعي ، وسأل قطب الدين الرازي : اذا اراد الحنفي ان يصير شافعياً فماذا يصنع ؟ . فقال له : يكفي ان يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله ..

وفي سنة ٧٠٩ جاء عالم حنفي من بخارى الى خدمة السلطان ، فشكا له الحنفية من نظام الدين قاضي القضاة ، وقالوا له : لقد اذلنا عند السلطان ، فاضمر هذا الشيخ ان يفحم نظام الدين امام السلطان ، وصادف ان اجتمع الشيخان بحضرته يوم الجمعة ، واخذا بالمناظرة والجدال ، وبين كل منهما ما في مذهب الآخر من مساويء ، فكانت النتيجة ان نفر السلطان من المذهبين ، واحتار في امره اي مذهب من المذاهب يختار ، فاشار عليه احد اصحابه ان يجمع العلماء من جميع المذاهب ، ويتناظروا في محضره ، واسمى له العلامة الحلي ، فطلبه السلطان ، وهيأ مجلساً حافلاً مشحوناً بالعلماء والفضلاء ، وفيهم قاضي القضاة نظام الدين ، فأثبت لهم العلامة بالبراهين القاطعه خلافة الامام بعد الرسول بلافصل ، وبطلان التقليد للأئمة الاربعة ، فسلموا جميعاً بقول العلامة ، وشرع رئيسهم قاضي القضاة بمدحه وتعظيمه والشهادة له بالتفوق والمقدرة، ولما رأى السلطان ذلك اعتنق هو وجميع امرائه ورجاله مذهب الامامية .

ونستخلص من مناظرة علماء المذاهب بعضهم مع بعض ، ومن تحول

السلطان من المذهب الحنفي الى المذهب الشافعي ، ومنه الى المذهب الامامي، الامور التالية :

١ - ان المسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم وآرائهم متفقون كلمة واحدة على ان الاساس الذي ترتكز عليه جميع المذاهب الاسلامية هو شهادة « لا اله الا الله محمد رسول الله » ويؤيد ذلك جواب القطب الرازي للسلطان حين سأله : ماذا يفعل اذا تحول من مذهب الى مذهب .

٢ - ان لاختلاف المذاهب اسباباً عديدة ، لا سبباً واحداً: منها الاختلاف في الرأي ووجهة النظر ، تماماً كاختلاف الفلاسفة وعلماء الطبيعة والادباء بعضهم مع بعض ، ومنها مجرد التعصب والاندفاع العاطفي ، ومنها الرغبة في اظهار البراعة بالجدل والنقاش ، وحب التغلب على الخصم بالحق أو الباطل ،ومنها الجهل المركب واعتقاد بعض اتباع المذاهب بان الناس بكاملهم على خطأ ، وهم وحدهم المصيبون .. الى غير ذلك من الاسباب ..

٣ - ان المسلمين كانوا حكام انفسهم بأنفسهم، ولا سلطان عليهم لأجنبي، وكان الحاكم يعتنق مذهباً معيناً ، ويتخذ منه دستوراً للدولة، وينفذ احكامه بقوة السلاح ، فتضطر بقية المذاهب ان تثبت وجودها بالدليل والمنطق خشية ان يطغى عليها مذهب القوة والسلطان ، ومهما تكن الاسباب والنتائج فان هذه الاختلافات قد تركت تراثاً ضخماً في المجادلات العلمية ، والحركة الفكرية ، برغم ما يحويه الكثير منها من نواقص وجزافات .

والف العلامة في هذا الموضوع كتباً عديدة ، منها : كتاب «منتهى المطلب في تحقيق المذهب » و «منهاج اليقين في اصول الدين » و « كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد » و « الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة » و « نهج الحق وكشف الصدق » و « نهج الكرامة في الامامة » وكتاب «الالفين» و « الباب

الحادي عشر » الى غير ذلك ، وقد بلغت مؤلفاته الـ ٩٠ ، وقيل ٢٠٠ وقيل اكثر ، ومهما تكن فقد وزعت كتبه على ايام حياته ، فكان لكل يوم كراس وكانت وما زالت اثاره حتى اليوم مرجعاً هاماً في الجامعات الدينية ، ومصدرا من مصادر الثقافة الاسلامية ، ولها الاثر البالغ عند علماء للاسلام .

والسر لنجاح اثاره وخلودها ان مدرسته الفكرية ترتكز على الاستقلال في الرأي ، واعمال العقل والنظر ، وقال نفر من اتباع المذاهب : ان العلامة حصر نشاطه العلمي بتاييد مذهب التشيع ، وصرف كل همه واهتمامه الى انتصاره على بقية المذاهب ، ووصفه بعضهم بالمتعصب ، واخر بالمتحامل ، وثالث بطاغية الشيعة ، وقد أخطأ هؤلاء كل الخطأ ، وجهلوا شخصية العلامة كل الجهل ، فلقد كان عالماً انسانياً عظيما ، يحب الحقيقة ، ويكره التعصب ، ولو وجد مثله عالم واحد في كل قرن ، او في كل قرنين ، بل لو قرأ علماء المذاهب كتبه بتجرد وامعان ، واعطوها ما تستحق من الاهتمام لم نجد بين المسلمين هذا التباعد والتهاتر المشين .

وبالتالي ، فان اثار هذا العظيم تشكل جزءاً كبيراً من التراث الاسلامي والعربي . وقد قامت بدور عظيم في نشر مبادىء الرسول الاعظم وآله الاطهار ، وبث تعاليمهم ، لا يدانيه اي دور منذ عهده حتى اليوم ، واذا وصف هذا العصر بعصر الذرة والفضاء فان عصر العلامة جدير بان يوصف بعصر احقاق الحق ، وابطال الباطل . (توفي سنة ٧٢٦ هـ) .

مهزلة المهازل

لم يطلق لفظ علامة على الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي الا بعد ان بلغ القمة في العلوم ، وفاق علماء عصره على الأطلاق . واليوم يطلق لفظ «علامة» على كل معمم ، و«حجة الأسلام» على كل طالب ، و « امام وآية الله » على كل

متزمت »، و « مجتهد اكبر» على كل مدعي و « اصحاب السماحة والفضيلة» على الجهلاء والسخفاء ، قال السيد محسن الأمين في الجزء الـ ٣٣ من اعيان الشيعة « كثر في هذا العصر اطلاق لقب عـــلامة على كل احد ، حتى اطلقه بعض المؤلفين في العراق على رجل عامي لا حظ له بشيء من العلم » .

وان دلت هذه الفوضى على شيء فانما تدل على كثرة الدخلاء والأدعيــاء الذين دنسوا العلم ، ولوثوا الأخلاق ، واساءوا الى الدين واهله ، وعبثوا بقيمه ومقدساته .

الشهيد الثاني

قال امير المؤمنين (ع) . منهومان لا يشبعان ، منهوم علم ، ومنهوم مال.
ولا اعرف كلمة تصدق على طالب العلم للعلم خيراً من هذه الكلمة ..
ان طالب المال لا يشبع مهما تضخمت ثروته ، وكذلك طالب العلم للعلم دائماً يسأل المزيد ، وان بلغ منه ما بلغ ، وينشده اينما كان في الشرق او في الغرب ، عند الكبير او الصغير .

اما من يطلب العلم للعيش ، ولبلوغ منصب ، فيكتفي منه بالقدر الذي يوصله الى غايته ، وقد لا يبلغ من العلم شيئاً ، فيتظاهر به ، ويموه على الناس، ويحمل الشهادات الكاذبة ليبلغ ما يريد .

واذا اردنا ان نضرب مثلاً لمنهوم العلم ، فلا نجد خيراً من الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي الجبعي .. فلقد درس اولا على ابيه ، ثم انتقل الى ميس ، وقرأ على الشيخ بن عبد العال المعروف بالمحقق الميسي [1] حوالي تسع سنوات ، ثم انتقل الى كرك نوح ، واخذ العلم عن السيد حسن الموسوي، ثم رجع الى جبع عالماً مقدراً من جميع الفئات ، ولكن ابت عليه همته

---

(١) وهو غير الشيخ علي بن عبد العال المعروف بالمحقق الثاني ، والمحقق الكركي .

الا ان يتعلم من العلم ما جهل ، فلم تمض على اقامته في جبع ثـلاث سنوات ، حتى ارتحل الى دمشق ، فدرس على علمائها الطب وعلم الهيئة ، وعلم قراءات القرآن ، وكتاب حكمة الاشراق للسهروردي ، ورحل الى القسطنطينية ، ثم الى بيت المقدس ، واخذ العلم عن علماء البلدين، ثم رحل الى مصر لتحصيل ما امكن من العلوم والمعارف ، ودرس في الازهر على كبار علـماء المذاهب الاربعة [1] واخذ عنهم فقه المذاهب والاصول والتفسير والمنطـق والهندسة والحساب وعلم الفلك وعلم الكلام والتجويد وعلم الحديث .

قضى هذا العظيم حياته في رحلات دائمة من اجل العلم ، وطاف الارض في طلبه ، وعاش ولا هدف له الا المعرفة ، يتعلم ويعلم ، ويؤلف ، ولم يكن يبالي بان يأخذ العلم من مسلم شيعي او سني،من الكافي او من صحيح البخاري.

قال السيد محسن الامين في الجزء الـ ٣٣ من الاعيان :

« كان الشهيد الثاني من حسنات الزمان ، او من غلطـات الدهر .. كان فقيهاً ماهراً في الدرجة العليا بين الفقهاء محدثاً اصولياً مشاركاً في جميـع العلوم الاسلامية ، لم يدع علماً من العلوم حتى قرأ فيه كتابـاً او اكثر على مشاهير العلماء » .

وقال صاحب روضات الجنات .

« لم الف الى زماننا هذا الذي هو في حدود سنة ١٢٦٣ هـ احداً من العلماء

---

(١) كان علماء الشيعة وما زالوا يعملون على التقريب بين المذاهب الاسلامية ، ويحاربون التعصب بشتى الطرق ، فقد هاجر الى الازهر لطلب العلم جماعة من كبار علمائهم ، كالشهيد الثاني ، والمحقق الكركي الشيخ علي بن عبد العال والشيخ حسين بن عبدالصمد والد الشيخ البهـائي ، والشيخ علي بن زهرة وغيرهم ، ولم نعرف احداًمن علماء السنة هاجر الى النجف للغاية نفسها ، هذا ، ونجد بين علماء الشيعة من يتعرض لفقه المذاهب كالعلامة الحلي ولم نجد في فقهاء السنة من تعرض لفقه الشيعة.

الاجلة في جلالة قدره ، وسعة صدره ، وعظم شأنه ، وارتفـاع مكانته ، وجودة فهمه ، ومتانة عزمه ، وحسن سليقته ، واستواء طريقته ، ونظـام تحصيله .. بل كاد يكون في التخلق باخلاق الله تعالى تالياً للمعصوم » .

ولم يبالغ صاحب الروضات في قوله : « لم ير مثله في العلماء الاجلة » فان الذي يطلع على سيرته يحسبها من نسج الخيال ، لو قيست بسيرة من نعرف من الشيوخ ، بخاصة شيوخ هذا الزمان .. فلقد رأينا العديد منهم اذا اسماهم اهل قريتهم بالعلماء ، واطمأنوا الى لقمة العيش تركوا العلم والمطالعة والتذاكر ، حتى كأنه عدو لدود .

وبعد ان نال الشهيد بغيته من العلوم انقطـع الى التأليف والتدريس ، فدرّس الفقه على المذاهب الخمسة في المدرسة النورية ببعلبك مدة خمس سنوات ، واشتهر امره في هذا البلد ، وانقادت اليه الناس ، ورجع اليه العلماء والفضلاء ، وصار المفتي والمرجع الاول لجميع المذاهب الاسلامية ، وهم يعلمون انه الشيعي الجعفري اهلا ومذهباً .

وكما تدلنا هذه الظاهرة على مقدرة الشهيد ، وعظمته ، وعلو همتـه ، ومرونته فانها تعطينا في الوقت نفسه صورة ناطقة انه لا مناهضة بين مذهب ومذهب من المذاهب الاسلامية ، وان التفرقة والتباعد جاء من رجال المذاهب لا من المذاهب نفسها ، لقد عمل الشهيد والمخلصون مـن امثاله عـلى اقصاء الجهالات والمهاترات عن الاسلام ومذاهبه ، وبثوا روح الاخوة بين المسلمين ، وحب السلم والتسامح بينهم وبين سائر الطوائف ، وتلهى البعض منا بالصغائر ، وتعصب تعصباً اعمى ، وعمل على فصم روابط الاخوة بوحي من عدو مستعمر ، او بدافع من جهل قاتل .. ان المفروض في كل عالم صادق الاسلام والايمان ان يكون كالشهيد في سعة افقه ، ورحابة صدره ، وحبه العلم للعـلم .. الشهيد الذي يأتي في الدرجة الثانية من المعصوم عند الشيعة يدرس صحيـح

البخاري وصحيح مسلم على علماء السنة في دمشق والقاهرة ، ويستجيزهم ، فيشهدون له بالعلم والفضل ، ويجيزونه بالرواية .. حقاً لقد رسم الشهيد بذلك صورة نقية رائعة للعلماء الذين نصحوا لله ونبيه ، وادوا رسالة الاسلام على اكمل الوجوه .

اما زهده، واعراضه عن الدنيا فلا يشبه شيئاً الا زهد الانبياء والاوصياء، فقد اعرض عن كل شيء ، حتى عن الجاه والمال ، ولم يطلب لنفسه شيئاً الا العلم والكمال . عاش فقيراً يعمل ويأكل من كد يمينه، وعرق جبينه ، كأي عامل وفلاح من سائر الناس ، هذا ، وهو علم من اعلام الدنيا ، لو شاء لملك منها ما عز وغلا . والآن تعال معي لنستمع الى ما قاله السيد محسن الامين في الاعيان عن هذا العظيم ، قال :

« ما ظنك برجل يؤلف مؤلفاته الجليلة الخالدة على مرور الدهر في حالة الخوف على دمه .. يؤلفها بين جدران البيوت المتواضعة ، وحيطان الكروم، لا في قصور شامخة ، ورياض نضرة ، ولا مساعد له ، ولا معين ، حتى على تدبير معاشه ..

ما ظنك برجل من اعظم العلماء ، واكابر الفقهاء يحرس الكرم ليلاً ، ويهيء الدروس ، ويلقيها في الصباح على الطلبة . . ويحتطب بنفسه لعياله ، ويشتغل بالتجارة – احياناً – يحمل السلة من بلد الى بلد . . هذا ، وداره مفتوحة للضيوف والواردين يخدمهم بنفسه ، ويباشر امور بيته ومعاشه .. وهكذا كانت طريقة علماء جبل عامل في الزهد والقناعة ، والجد والكد ، والعمل للمعاش والمعاد » .

هذا هو العالم الذي بذل نفسه للدين لا للدنيا ، وطلب العلم ليَخدم لا ليُخدم ، هذا هو العالم الذي قال الله عنه وعن امثاله « انما يخشى الله من عباده العلماء » والذي يحب الامام الصادق ان يرى في شيعته مثله . . ترك

الشهيد دنيا الناس ، وعمل في كسب معاشه تماماً كما يعملون ، حتى كأنه لا يمتاز عنهم في شيء الا في قضاء مصالحهم وحمل اثقالهم.. وهذا هو سرعظمته وخلوده .

وليس من شك ان هذه الحياة قد عرفت رجالا ليسوا باقل من الشهيد علما وذكاء ، ولكنهم انطووا مع الايام ، ومروا ولم يشعر احدا بوجودهم ، لانهم لم يعملوا بما علموا .. فحقدوا وحسدوا ، وراءوا وطمعوا ، وخافوا الناس ، ولم يخافوا من الله ، قال الامام الصادق : آفة العلماء الطمع ، والبخل والرياء ، والعصبية ، وحب المدح ، والخوض فيما لم يصلوا الى حقيقته، والتكلف في تزيين الكلام ، وقلة الحياء من الله ، والافتخار ، وترك العمل بما علموا .

وقد ترك الشهيد الثاني للمكتبة الاسلامية والعربية ٧٩ مؤلفاً في شتى العلوم والفنون ، منها كتاب « الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية » في الفقه ، وعلى هذا الكتاب مدار التدريس منذ عصر المؤلف ، حتى اليوم ، وقد نال حظا كبيراً من الاقبال والرواج ، وطبع مرات عديدة ، ومنها كتاب «مسالك الافهام الى شرائع الاسلام» في الفقه ايضا ، وهو محل انظار المؤلفين والمدرسين والمجتهدين ، وعماد من اعمدة الشريعة الاسلامية ، قال صاحب الاعيان :

« هو اول من صنف من الامامية في دراية الحديث ، واول من وضع الشرح المزجي من علمائهم ، وقد اخذه عن علماء السنة .. وتفرد بالتأليف في مواضيع لم يطرقها غيره ، او طرقها ، ولم يستوف الكلام فيها ، مثل آداب المعلم والمتعلم .. ومثل اسرار الصلاة والزكاة والصوم والحج ، واسرار معالم الدين ، والصبر على فقد الاحبة والاولاد .. وغير ذلك » .

وشاء الله سبحانه ان يختم حياته بالشهادة ، ليجمع له بين كرامتين : مداد

العلماء ، ودمـاء الشهداء ، فوشي به الى السلطان في القسطنطينية بانه يجمـع حوله العلماء والفضلاء ، ويبث مذهب التشيع ، فارسل رسولاً في طلبـه ، فجاء الرسول الى بلده جبع ، فقيل له : ذهب الى الحج ، فذهب الى مكة ، واسره وهو يطوف حول الكعبة بعـد ان قام بزيارة الرسول الاعظم ، وفي الطريق حرض بعض المتعصبين الرسول على قتله ، فقتـله في مكان على ساحل البحر ، وكان هناك جماعة من التركمان ، فرأوا في تلك الليلة نوراً ينزل من السماء ، ويصعـد ، فدفنوه هنالك ، وبنوا عليـه قبة . وكان استشهاده يوم الجمعة في شهر رجب سنة ٩٦٦ هـ.

وهكذا لم يسلم من محنة التعصب من عمـل للالفة والقضاء على التعصب ، وقتل بسيف الحقد والبغضاء من لم يعرف في حياته الا المحبة والتسامح ، والا العلم والعمل ، والطاعة والعبادة ، خرج من بيته مهـاجراً الى الله ورسوله ، فاخذ ، وهو يطوف حول البيت ، واستشهد على محبه آل النبي ، وهو يتلو القرآن ، واية خاتمة اعظم وافضل من هذه ..

وبالتالي ، فان من يتتبع سيرة هذا العظيم ينتهي الى النتائج الاتية :

١ — انه اول من الف في اسرار الاحكام ، ومبادىء الاسلام ، وكشف عما فيها من المعاني الانسانية ، والقيم المثـالية ، واثبت بالارقام ان الاسلام دين الحياة ، وان شريعته شريعة العقل والعلم . لقد سبق الشهيد الثاني هـذا العصر الذي كثرت فيه التآليف الاسلامية ، وتسابق الكتاب كالعقاد والشيخ شلتوت وغيرهما الى بيان عظمة الاسلام ، وحاجة النـاس اليه ، لقـد سبقهم جميعا باكثر من اربعمئة سنة ،بل لو قارنا بين ما كتب وكتبوا في هذا الموضوع لالفيناه يمتاز بحرارة الايمان ، وعمق التفكير ، وبالنزعة المنطقية ، والبعد عن التعسف والتكلف .

٢ — انه بالرغم من جلالة قدره ،وعظيم منزلته عند الله والناس ،واكبارهم

له فقد عاش كاحدهم من كد يمينه وعرق جبينه ، لا يكلف احدا بشيء ، ولا يرى لنفسه فضلا على احد بشيء ، قال تلميــذه ابن العودي الذي الف رسالة خاصة في سيرته : « كان اذا اجتمع بالأصحاب عد نفسه كاحدهم ولم تمل بشيء الى التمييز عنهم ، حتى كان يتعرض الى ما تقتضيه الحال من الأشغال ، ولا يترقب لمن يباشر عنه ما يحتاج اليه ، ولقد شاهدته ينقل الحطب على حمار في الليل لعياله .. وتفرد عن العلماء بنقبة وفضيلة جليلة ، وهي ان ما من عــالم الا وله من يقوم بمعيشته .. اما شيخنا فكان يتعاطى جميع مهماته بقلبه وبدنه هذا بالاضافة الى الضيوف ومصالح الناس ، والى انه كان في غالب احواله في خوف على تلف نفسه متسترا مختفياً من الاعداء ومع ذلك فقد برز منــه من التصانيف والابحاث والتحقيقات ما هو ناشيء عن فكر صــاف ، ومغترف من بحر واف ، بحيث ان من تفكر في الجمع بين هذا ، وماذكرناه تحير ،ولو بذل احدنا مع قلة موانعه وتوفر دواعيه اوقاته في كتابة مصنفاته لعجز عنها»

وصدق ابن العودي في قوله ان احدنا يعجز عن نسخ مـــا الف وصنف من الكتب التي اودعها ثمرات العقل المفكر ، والفكر المبــــدع ، ومن الذي يصبر على نسخ ٧٩ مؤلفا يتجاوز بعضها الالفي صفحة ؟!

٣ ـ انه اول من الف في علم الدراية من علماء الامامية [١] ومهد القواعد ووضع الشرح المزجي .

٤ ـ انــه تحرى الحقيقة ، ونشدها في جميع مظانها ، ولم يكتف بكتب الشيعة وحدها ، ولا باقوال الاساتذة والشيوخ ، والاباء والاجداد ، فبحث

---

(١) علم الرجال يبحث عن صفة كل راو بمفرده ، ويقطع النظر عن سلسلة السند التي قــد تحوي العديد من الرواة ، اما علم الدراية فيبحث عن مجموع رواة الحديث ، اي عـــن سلسلته بمجموعها ، والغاية من علم الدراية معرفة اصطلاح الفقهاء في تسمية الحديث ، وتمييز المقبول من المردود .

ودرس كتب العقائد والتفسير والحديث عند السنة ، واطلع على فقه المذاهب الاربعة ، وبعد الاستقصاء والمقارنة آمن بما اوحاه عقله وضميره .. وهذي هي مزية العالم الذي يتوخى الحقيقة ، ويستضيء بنورها ايا كان مصدرها .

والذي يؤسف له ان كل فريق من علماء السنة والشيعة قد جمد على كتبه ومصادر مذهبه ، بحيث لو سئل عن فرع او اصل يدين به الفريق الاخــــر لحار في الجواب ، بل قد لا تجد عند كبير من فقهاء احـــد الفريقين كتاباً في فقه الآخر . .

وهنا يظهر السر لعظمة الشهيد،وامتيازه على غيره ، فلقد ترك في مكتبته الفي كتاب في شتى العلوم ، ولشتى الفرق والطوائف ، وخط بيده مئتي كتاب من تأليفه وتأليف غيره ، هذا ، ولم تتجاوز حيـــاته الـ ٥٤ سنة ، عاشها في خوف على نفسه ، وفي عمل من اجل العيش ، وجهاد للصالح العام .

ان الشيوخ والمعممين الذين مروا في هـــذه الحياة يعدون بالالوف لا بالمئات ، وربما بالملايين ، ولكن امثال الشهيد لا يتجاوزون عدد الاصابع .

وفي النهاية ، اني قرأت سيرة هذا العظيم لاستخرج منها مثالا يصلح للعبرة والعظة فانتهيت الى تسطير هذه الكلمات لمجرد الدهشة !.. قال بعض العلماء: « ان كل فرد من افراد الانسان يكاد يكون طبيعة بذاته ، لشدة مـــا بين افراده من التفاوت ، بحيث يصعب تصور القاسم المشترك بين جميع «الافراد» بل ان هذا التفاوت نلمسه بين افراد الصنف الواحد .. وتتجلى هذه الحقيقة حين نقارن بين سيرة هذا العظيم ، وسيرة من نعرف من العلماء .

العالم الصالح

نحن نؤمن بالله وكتابه ، وبالنبي وسنته ما في ذلك ريب ، ولكن البعض منا يؤمن بذلك نظرياً لا عملياً. . واليك هذا الشاهد:

هو يؤمن بان الله سبحانه يرزق الانسان من حيث لا يحتسب ، وكثيرا ما يسأله ذلك في ادعيته واوراده .. وايضا كثيراً ما يأتيه الرزق عفواً وبدون احتساب ومع هذا كله لا يثق من الوجهة العملية بجود الله وكرمه عز وعلا. فقد سمعناه يقول للناس : ان الرياء حرام ، وان الله لعن المرائين ، وانـــه لم يقبل لهم عملا ، وفي الوقت نفسه يتملق اهل الجاه والمال .. وايضا سمعنـــاه اكثر من مرة يقول : ان الظلمة واعوانهم في الدرك الاسفل من النار ، ومـع ذلك يسبح بحمد الزعماء الطغاة في المجالس ، ومن على المنابر ..

واقسم انا لو اتعظنا بما نعظ ، وعملنا بما نؤمن لكان لنا ما نحب وفوق ما نحب ، ولخضع لنا كل زعيم وعظيم .. وفي التاريخ الف مثال ومثال ،وهذا واحد منها :

كان في جبل عامل قرية صغيرة متواضعة تدعى «إمية» [1] بكسر الالف

(١) تقع في قضاء بنت جبيل ، وقد اصابها الخراب ، ولم يعد فيهـــا اليوم سوى الرسوم والاثـــار ..

يعيش اهلها على زراعة الحنطة والشعير ، وكان فيها عـالم صالح ، يخشى الله ، ويعمل بكتابه ، ويتأدب بآداب الرسول وسنته ، وكان في حياته ومظاهره لا يمتاز عن اضعف رجل في القرية ، وفي ذات يوم اجتاز قرية «إمية» احـد ملوك الايوبيين ، وهو في طريقه الى بعض البلدان ،فخرج اهل القرية لاستقباله والاحتفاء به ، وبقي العالم الصالح في بيته لم يخرج مـع المستقبلين ، ولم يزر الملك مع الزائرين ، فاغتاظ الملك من تصرف الشيخ وتجـاهله له ولمكانه ، ولكنه كان رشيداً عاقلاً ، لا يقدم على عمل الا بعد البحث والروية ، فبعث الى الشيخ يسأله عن السبب ؟ . فأجاب بما هو مأثور ومشهور : « اذا رأيت الملوك على ابواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء ، واذا رأيت العلماء على ابواب الملوك فبئس الملوك وبئس العلماء » . فعظم الشيخ في عيني الملـك ، واكبره ايما اكبار ، واسرع الى زيارته ، وجلس متأدباً بحضرته ، واستمع الى حديثه بخضوع وخشوع ، وامتلأت نفسه منه رهبة ، وعرض عليه ان يزوجه ابنته الخاتون ، فقبل الشيخ ، وتم الزواج .

وبارك الله في هذا القران ، لانه خالص لوجهـه تعـالى ، ووهب للزوجين اولاداً واحفادا اعتز بهم الدين والانسانية ، وعرفوا بآل خـاتون نسبة الى امهم بنت الملك .. قال السيد محسن الامين في الجزء الخامس من الاعيان ص ١٣٠ الطبعة الثانية :

« خرج من آل خاتون ما لايحصى من العلماء في جبل عـامل والعراق وبلاد العجم والهند وغيرها ، واليهم كانت الرحلة في «عيناثا» – قرية في جبل عامل سكنها الخاتونيون – فهـاجر اليها ابن ناصر البويهي ، ليقرأ عليهم ، وقصدهم بعض اعاظم علماء العجم مع ولده بطريقه الى الحج للاستجازة منهم في عيناثا ، ووزر احد علمائهم لبعض القطبشاهية في الهنـد ، واستمر فيهم العلم الى هذا العصر ، ثم تراجع بتطور الزمن وانقلابه رأسا على عقب » .

والان ، ونحن في سنة ١٣٨٢ هـ لا يوجد منهم عالم واحد .. والذي وزر في الهند هو الشيخ محمد بن علي بن خاتون العاملي ، فقد تولى منصب رئاسة الوزراء في سلطنة عبدالله قطب شاه سنة ١٠٣٨ هـ في حيدر آباد ، وكان ملوك القطبشاهية من الشيعة ، وللشيخ المذكور رسم نادر في المتحف البريطاني بلندن ، وفي الجزء الـ ٤٦ من الاعيان صورة عنه مع الترجمة .

ونعود الى حديث العالم الصالح جد آل خاتون لنتساءل : كيف اعطى الملك ابنته الخاتون لشيخ فقير، وترك الملوك وابناء الملوك؟! وكيف تركت هي القصور والخدم والحشم لتعيش مع عابد زاهد في بيت اشبه بالمغاور وقرية اشبه بالمقابر ؟!

الجواب

ان عظمة العلماء والمتقين فوق عظمة الملوك والسلاطين ، لانهم اقرب الناس من درجة النبوة ، ولا شيء فوق النبوة الا الله سبحانه.. وقد رأينا الجبابرة واعاظم الحكام كيف يشعرون من انفسهم المذلة والصغار عند هيبة العلم والدين ، وكيف يعفرون الجباه والخدود بتراب العتبات المقدسة ، وقبور الانبياء والاوصياء وورثتهم العلماء الصالحين .. وقديما قيل : « الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك » وكم من عزيز هوى به الجهل والفسوق الى الذل والهوان .. وكم من خسيس رفعه العلم والتقوى الى اعز مكان : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » . وقال بعض العارفين ؟ الانسان شريف بالعلم لا بقوة بدنه ، لان الجمل اقوى منه ، ولا بشجاعته ، لان السبع اشجع منه ، ولا باكله ، فان الثور اوسع منه بطنا ، ولا بالجماع ، لان اخس العصافير اقوى منه على ذلك ..

وكان سالم بن ابي الجعد عبدا اشتراه مولاه بـ ٣٠٠ درهم ، ثم اعتقه فطلب

العلم، وبعد امد غير طويل اتاه امير المدينة زائراً فلم يأذن له.. وما زال الكبار من علماء النجف ، حتى اليوم يترفعون عن زيارة الملوك ، والاتصال بالحكام وقد اخذوا هذه السنة عن امامهم الصادق ، فقد جاء في السير ان المنصور كتب الى الامام جعفر الصادق :

لما لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟

فاجابه : ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا عندك من الاخرة ما نرجوك به ، ولا انت في نعمة فنهنيك ، ولا في نقمة فنعزيك ، فماذا نصنع عندك ؟!

فكتب اليه المنصور : تصحبنا لتنصحنا .

فاجاب : من اراد الدنيا لا ينصحك ، ومن اراد الاخرة لا يصحبك .

فقال المنصور : والله لقد ميز عندي منازل الناس من يريد الدنيا ممن يريد الاخرة ، وانه ممن يريد الاخرة لا الدنيا .

وهذه الحقيقة يعرفها الحكام وارباب الجاه والمال اكثر من غيرهم ، فما تقرب اليهم احد عليه سمة العلم والدين الا احتقروه وازدروه بينهم وبين انفسهم وان أظهروا له ما أظهروا لمآرب أخرى. . انهم يعلمون حق العلم بأنه كاذب منافق قد استغنى بهم عن الله ، ولبس ثوب الدين ليأكل الدنيا بالدين .. وما ابتعد عالم الا كبر مقامه عندهم ، وعظمت منزلته في نفوسهم ، وقد رأينا الملك الايوبي حين ترفع عنه العالم الصالح كيف ذهب اليه خاضعاً جلس بين يديه متأدباً ، وخطبه لابنته متبركا .. ولو اتاه كما اتته الناس لكان عنده كاحدهم .. ولو خطب ابنته الخاتون ، وهذي هي الحال ، لأجابه بأقبح مقال

او بالسلاسل والاغلال .

وبالتالي ، فان الحديث القائل : « النظر الى وجه العالم عبادة » يصدق على هذا العالم وامثاله الذين ضربوا للعالم اروع الأمثلة في الاخلاص للعلم ، وحملوا امانة الدين وأدوها ابتغاءاً لمرضاة الله وحده .

اهل الدين واهل الدنيا

العالم اللص

قال الرسول الاعظم (ص) : « سيكون من بعدي امراء ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، واعانهم على ظلمهم فليس مني ، ولست منه ، وليس بوارد عليّ الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وانا منه ، وهو وارد علي الحوض » .

وقال : « ما ازداد رجل من السلطان قرباً الا ازداد من الله بعداً » .

وقال بعض العارفين : اذا رأيت العالم يختلف الى الاغنياء فأعلم بأنه لص.

وقال ابن عباس : اجتنبوا ابواب الملوك ، فانكم لا تصيبون من دنياهم شيئاً الا اصابوا من دنياكم ما هو افضل منه .

وقال آخر : اني اتقلب الليل كله على فراشي ، ألتمس كلمة واحدة أرضي بها السلطان ، ولا اسخط خالقي فما اقدر عليها .

وقد دلتني التجارب التي مررت بها سنوات طوالا انه لا شيء من قول او فعل يرضي الحاكم والزعيم ، ولا يسخط الرب الكريم ، وان الواقع

يدور بين امرين لا ثالث لهما : اما رضى ابناء الدنيا وغضب الخالق ، واما رضاه وغضبهم . . وقديماً قال الاحنف لمعاوية : ان ارضيناك اغضبنا الله ، وكل حاكم وزعيم اليوم يحمل روح معاوية بن ابي سفيان ..

اخبار بالغيب

قال الرسول الاعظم : « انكم اصبحتم في زمن كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه ، قليل سائلوه ، كثير معطوه ، والعمل فيه خير من العلم ، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير خطباؤه ، قليل معطوه، كثير سائلوه، العلم فيه خير من العمل » .

وهذا الحديث اخبار بالغيب ، لانه صورة ناطقة بأوضاعنا ، فانّى اتجهت تسمع الخطباء في المجالس والمساجد ، وفي الاذاعات ، اما الفقهاء العلماء حقاً ، اما العاملون المخلصون فأندر من الكبريت الاحمر ، وكذا من يسأل اكثر ممن يعطي ، ومن لا يعمل بما يعلم اكثر من العاملين ، تماماً على عكس ما كانت الحال في عهد الرسول الاعظم (ص) .

قيل : من علامات هذا العصر السرعة . . والحقيقة ان اظهر علاماته ودلائله الكذب والرياء ، واللامبالاة بالدين والضمير ، فالاذاعة تكذب ، والصحف تكذب، والساسة لا يصدقون ،حتى الكثير من الخطباء والوعاظ، واكثرهم يكذبون على الله وعلى انفسهم ، ويقولون ما لا يفعلون . .

سليمان بن عبد الملك وابو حازم

دخل سليمان بن عبد الملك المدينة المنورة ، وسأل : هل فيها رجل ادرك اصحاب رسول الله (ص) ؟ . قالوا : ابو حازم . فبعث اليه ، ولما اتاه قال سليمان :

يا ابا حازم ما هذا الجفاء ؟ .

قال ابو حازم : وأي جفاء ؟ .

قال سليمان . اتاني وجوه اهل المدينة ، ولم تأتني .

قال ابو حازم . لم يجر بيني وبينك معرفة آتيك لها .

قال سليمان : يا ابا حازم لماذا نكره الموت ؟ .

قال ابو حازم : لانكم اخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنيـاكم ، فانتم تكرهون ان تنتقلوا من العمران الى الخراب [1]

قال سليمان : فكيف القدوم على الله ؟ .

قال ابو حازم : اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله ، وامـا المسيء فكالعبد الآبق يرد على مولاه .

قال سليمان : ليت شعري ما لنا عند الله ؟.

قال ابو حازم : اعرض عملك على كتاب الله،فانك تعلم به مالك عند الله.

قال سليمان : اين اصيبه من كتاب الله ؟.

قال ابو حازم : في قوله تعـالى : « ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم » .

قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ .

قال ابو حازم : ان رحمة الله قريب من المحسنين .

اشار ابو حـازم بقوله هذا الى الآية ٥٦ سورة الاعراف :«ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوا الله خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين».

---

(١) اخذ هذا عن الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري .

فالله سبحانه لا يرحم من يظلم الناس ، ويفسد في الارض ، وانما يرحم المحسنين ، وهم الذين يدعون الله خوفا من عقابه ، وطمعا في ثوابه ، وفي الحديث :«من لا يَرحم لا يُرحم». وقال امير المؤمنين :

«ان لاهل الدين علامات يعرفون بها : صدق الحديث واداء الامانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الارحام ، ورحمة الضعفاء » . . فمن يذهب ويقول : الله كريم الله رحيم ، ويستشهد بقوله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » ويتجاهل آية الاعراف كمن يستشهد بالآية ٥٤ من سورة الزمر ، وهي قوله تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » ويدع الآية المتصلة بها بلا فاصل وهي : « وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » . .

فالله سبحانه يغفر الذنوب ، كل الذنوب ، حتى الشرك ، ولكن بعد التوبة والانابة . . ولو جاز لاحد ان يستدل بكلمات من آي الذكر الحكيم ، او سنة النبي الكريم ، ويترك السياق الذي وردت فيه لجاز لابليس ان يقول: انا شيء ، ورحمة الله تسع كل شيء ، فرحمته تسعني . . وانا مذنب والله يغفر الذنوب جميعاً ، فجميع ذنوبي يغفرها الله . .

بهلول والرشيد

اراد هارون الرشيد ان يولي رجلاً قضاء بغداد ، فأستشار من يثق برأيهم ، فاشاروا عليه ببهلول ، فاستدعاه ، وقال له :

إعنا على عملنا .

قال بهلول : بأي شيء ؟

قال الرشيد : بعمل القضاء .

قال بهلول : انا لا اصلح لذلك .

قال الرشيد : كيف،وقد اجمع العارفون على انك اصلح رجل لهذا العمل؟.

قال بهلول : يا سبحـــان الله .. انا اعرف بنفسي منهم . . ثم ان كنت صادقاً بقولي لا اصلح فهو ما اقول ، وان كنت كاذباً فالكاذب لا يصلـــح لهذا العمل .

فالح عليه الرشيد وشدد ، وقال لا ندعك بحال ، فخرج من عنـــده ، وركب قصبة ، وقال : خلوا الطريق للفرس ، فقال الناس : جن بهلول . . فقال الرشيد : كلا ، ولكنه فر بدينه منا ، وبقي كذلك يتظاهر بالجنون الى ان مات .

ولو كنت في عصره ، وسألني سائل عن رجل اوصى بمبلغ من ماله لاعقل الناس : لمن يعطى ؟ لقلت له : يعطى لبهلول ، لان اعقل النـــاس اقواهم ايماناً، واخلصهم لدين الله . . واي مؤمن مخلص أعظم ممن اختار حياة المجانين على حياة القضاة وارباب المناصب احتفاظاً بدينه وايمانه؟! .

الفضيل والرشيد

كان الفضيل بن عياض من العباد والزهاد ،فقال له هارون الرشيد: مـــا ازهدك ؟!.

فقال الفضيل : انت ازهد مني .

قال هارون : وكيف ؟.

قال : انا زهدت في الدنيا ، وهي فانيـــة ، وانت زهدت في الآخرة ، وهي باقية .

وهذا هو الفارق بين ابناء الدين ، وابناء الدنيا ، فمن آثر الفانيـــة على

الباقية فهو من اهل الدنيا ، وان كور العمة واطلق اللحيه .. ومن آثر الباقية فهو من اهل الدين ، وان كان « مشوشاً او مطربشاً او مبرنطاً » ..

ومن كلام الفضيل قوله لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتهـا في امام – اي يطلب من الله صلاح الحاكم – لانه اذا صلح صلحت البلاد والعباد .

اما انا فلو كانت لي دعوة مستجابة لسألت الله سبحانه ان يهدي المتسمين بسمة رجال الدين الى الحق ، حتى لا يصبحوا اتباعاً لحاكم او متزعم .

حين اصدر الرئيس عبد الناصر قراراتـه الاشتراكية اذاع شيوخ الازهر بياناً على الناس ، قالوا فيه : انها نفس الاشتراكية التي انزلهـا الله على نبيـه الاعظم .. وعلى هذا الاساس دعوا جميع الدول والشعوب الاسلامية للاقتداء بالرئيس ..

وحين اطلق الروس سفينة الفضاء اجتمع رجـال الكنيسة المسيحية في بروكسل عاصمة بلجيكا ، واصدروا بياناً قالوا فيه : « ان الله لن يغفر لرجال الفضاء ما يصنعونه من التصرف في ملك الله . . وان الاهانة التي يوجهونهـا الى الله لن تمر دون ان ينزل بهم اشد العقوبات .. »

وليس هذا بغريب ولا بجديد من امثال هؤلاء فقد كانوا وما زالوا اداة طيعة في ايدي الاقوياء وارباب الاهواء .

الخليل بن احمد

هذه صورة من حياة عظيم صفّى نفسه من كل شائبة ، ثم وهبها خالصة للعلم وحده ، فجاءت اقواله معيناً ينهل منه رواد العلوم والآداب ، وافعاله دروساً وعظات للاجيال والاحقاب .

قال سفيان الثوري : من اراد ان ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن احمد .

بل هو اغلى واثمن من الذهب ، لانه زهد فيه ، وفي الدنيا كلها ، ارسل اليه سليمان بن علي ، وكان امير الاهواز ، رسولا يطلبه لتأديب ولده، فوجده يبل خبزاً يابساً بالماء ، ويأكل ، فقال له : اجب الامير .

قال : لا حاجة لي به .

قال الرسول : يغنيك عن هذا .

قال الخليل : مادمت اجده فلا حاجة لي باحد كائنا من كان ، ثم قال للرسول : بلغ الامير هذه الرسالة :

للناس مال ولي مالان مالهما اذا تحارس اهل المال حراس
مالي الرضا بالذي اصبحت املكه ومالي الياس عما حازه الناس

وما اشبة هذه الحكاية بحكاية الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري مع عثمان :

ارسل عثمان الى ابي ذر مائتي دينار ، وقال للرسول : قل له : ان عثمان يقرئك السلام ، ويقول لك : استعن بهذا المال على مابك .

فقال ابو ذر للرسول : هل اعطى احد من المسلمين مثل ما اعطاني ؟

قال : لا

قال ابو ذر : انما انا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم .

ولما علم عثمان ارسل اليه من قال له : يقول لك عثمان . ان هـــذا من صلب مالي .. وبالله الذي لا اله الا هو ما خالطه حرام،وما بعثت به اليك الا من حلال .

قال ابو ذر : لا حاجة لي فيه ، وقد اصبحت يومي هـــذا ، وانا اغنى النـــاس .

فقال له الرسول : اصلحك الله ما ارى في بيتك شيئاً ..

قال بلى ، ان ههنا رغيفي شعير .. وقد اغناني الله بهما عن هذه الدنانير .

ومثلها حكاية ديجون الفيلسوف اليوناني الشهير مع الاسكندر الكبير .

ارسل الاسكندر الى ديجون يدعوه الى مجلسه ، فقال للرسول : قل له ، يقول لك ديجون : اذا منعك عن المسير الي استغناؤك عني بسلطانك ، فقـد منعني عن المسير اليك استغنائي عنك بقناعتي .. فسار الاسكندر اليـــه مع وزرائه وحاشيته ، فوجده جالساً في الشمس على الارض ، فلم يأبه له ديجون فقال له الاسكندر : انا الملك اسكندر .. فاجابه ، وانا الكلب ديجون .. فقال كبير الوزراء للاسكندر : لو كنت مكانك لضربت عنقـــه .. فقال

الاسكندر : لو كنت انا انت لم اصل الى ما وصلت اليه..ثم التفت الاسكندر الى ديجون ، وقال له . سل حاجتك .. قال : حاجتي ان تتنح جانباً فقد حجبت عني نور الشمس .. فذهب الاسكندر ، وهو يقول . لو لم اكن الاسكندر لكنت ديجون . وهكذا الروحانيون يلقون الملوك واهل الدنيا بالاعراض ، وعدم الاكتراث ، حتى ولو كانوا بعظمة الاسكندر الذي ملك الشرق والغرب .

وكان للخليل تلاميذ كثر ، والف العديد من الكتب فانتشر علمه في كل مكان ، في حلقات الدرس،ومجالس الملوك والمنتديات وغيرها ، وكان الاساتذة والطلاب يقولون في بحوثهم ومذكراتهم واجوبتهم قال الخليل وذكر الخليل ، وكانوا يعيشون ويكتسبون بعلمه ، اما هو فقد تعلم وعلم لوجه الله والعلم، ولم يكتسب بعلمه ديناراً ولا درهماً ، ولم يتقرب به لامير او وزير .. قال النضر بن شميل : اكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه ، وهو في خص -بيت من قصب لا يشعر به احد .

وكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، وكان اذا حج ادى الفريضة متنكرا ، ورجع الى خصه دون ان يشعر به احد بمكانه هذا ، والناس في الحرمين وفي طريقها وفي كل مكان يرددون اقواله ، ويحتجون بآرائه .. وليس في هذا اية غرابة ما دام لم يطلب العلم للكسب والمال ، ولا للشهرة والجاه .

ان الذين يتنافسون على الظهور ، ويتحدثون عن انفسهم بمناسبة وغير مناسبة ، ويندبون حظهم وحرمانهم من المناصب والاموال ، ويشكون ويبكون من مضيعة العلماء في عصرهم ، ان هؤلاء لم يطلبوا العلم لله والعلم ، وانما طلبوه للدنيا ، واهانوه وانفسهم من اجلها، فلما لم يبلغوا منها ما يريدون شكوا وبكوا .. ولو كانوا علماء حقاً لاستغنوا بنعمة العلم عن كل شيء ، لانها فوق كل شيء .. ان سيرة العلماء المخلصين تدلنا على ان العالم لا يغضب

لشيء من اشياء الدنيا ، ولا تذهب نفسه عليها حسرات ، وانما يتحسر ويتألم اذا مر عليه يوم لا يستفيد فيه علما ولا يفيد .

قال الخليل : اذا رأيت من هو اعلم مني فذاك يوم استفادتي ، واذا رأيت من هو دوني علما فذاك يوم افادتي ، واذا رأيت مثلي فذاك يوم مذاكرتي ، واذا لم ار احد من هؤلاء فذاك يوم مصيبتي .. وهذا قول من ذاق حلاوة العلم ، ورسخ فيه ، وتكشفت له اسراره وخفاياه ، اما الذين يلبسون ثوب العلم وليسوا منه في شيء فاذا رأوا من هو اعلم منهم حقدوا وحسدوا ، واذا رأوا من هو مثلهم اغتابوا وافتروا ، واذا لم يروا احد حمدوا الله على السلامة ..

ومن كلام الخليل قوله لا يعلم الانسان خطأ معلمه ، حتى يجالس غيره وقوله لا يعطيك العلم بعضه ، حتى تعطيه كلك وانت من البعض على خطر .. واتمنى ان يتعظ بهذه العظة البالغة المبتلون بداء العجب والغرور الذين ادعوا لانفسهم الاجتهاد ، وعلوم الاولين والاخرين لا لشيء الا لانهم اقاموا في النجف بضع سنوات اتقنوا فيها صنع الشاي وتكوير العمة ولبس الجبة .. يقول الخليل العالم المجرب : انت من بعض العلم على خطر ان اعطيته كلك ويقول الجاهل المغرور : اعطاني العلم كله مجانا دون اي مقابل .

ومن اقواله الرجال اربعة : [1] رجل يدري ، ويدري انه يدري فذاك هو العالم ، فالزموه ، ورجل يدري ، ولا يدري انه يدري ، فذاك هو الغافل فايقظوه ، ورجل لا يدري ، ويدري انه لايدري ، فذاك هو الجاهل ،

---

(١) هذا الكلام للامام الصادق (ع) سوى ان الامام قال يعلم ولا يعلم ، والخليل قال يدري ولا يدري .

فعلموه ، ورجل لا يدري ، ولا يدري انه لا يدري ، فذاك هو الاحمق ، فاجتنبوه ، ثم انشد :

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني   او كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني   وعلمت انك جاهل فعذرتكا

اما نحن فلا نعذر الجاهل المقصر ، ونحذر الناس منه كي لا ينخدع به البسطاء المغفلون .. واقسم اني ما رأيت جاهلاً يتعمم الا تطرق اليأس الى قلبي بالم ومرارة من صلاح واصلاح هذه الفئة [1] وعسى ان تترك هذهالامثال التي نقدمها للقراء شيئاً من الاثر .. والله سبحانه المسؤول ان يبتعد بنا عن الزلل والضلال .

لقد كان الخليل عظيما في صراحته وجرأته كما كان عظيما في علومه واخلاقه فكان يقول الحق ، ولو كان فيه ذهاب نفسه .

سأله سائل عن الدليل على ان علي بن ابي طالب هو امام الكل ؟ .فقال: الدليل هو احتياج الكل اليه ، وغناه عن الكل .

وسأله آخر: لم هجر الناس عليا مع قربهمن الرسول ، ومكانه في الاسلام؟. فقال : بهر ، والله نوره انوارهم ، وغلبهم على صفو كل منهل ، والناس الى اشكالهم اميل .

---

(١) قال السيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل في كتاب « النواة » : قلت يوما لاحد العلماء : لو لبست العمامة .. فقال : اجل ، يوم تستطيع ان تنزعها من رؤوس الجهال ، فتصبح شعاراً مصونا .. ثم قال العبيدي : وما دامت العامة الجاهلة تنخدع بجاهل تخرج من مدرسة البزاز والخياط فليس الى انقاذ هذه الامة من الضلال من سبيل .

لقد كان الخليل عظيماً في صراحته وجرأته كما كان عظيماً في علومه واخلاقه - فكان يقول الحق - ولو كان فيه ذهاب نفسه.

وسأله ثالث عن فضائل علي ؟. فقال : ما اقول في حق رجل اخفى الأحباء فضائله من خوف الاعداء ، وسعى اعداؤه في اخفائها من الحسد والبغضاء ، وظهر من فضائله مع ذلك كله ما ملأ المشرق والمغرب .

وفي كتاب «روضات الجنات» ان الخليل كان في عصر الامام جعفر الصادق، وانه من جملة اصحابه، وله الرواية عنه.

الشيخ يوسف صاحب الحدائق

اهل البحرين

قال صاحب «روضات الجنات» في ترجمة الشيخ محمد الخطي البحراني :
«اهل البحرين قديمو التشيع متصلبون في امر الدين وقد خرج من البحرين من علمائنا جم غفير .. ورشيد الهجري الذي هو في درجة ميثم التمار ومن جملة حاملي اسرار امير المؤمنين ينسب الى هجر مدينة كبيرة هي قاعدة البحرين » .

وهذا الرشيد الجليل قتله زياد بن ابيه على حب امير المؤمنين ، فقطع يديه ورجليه ولسانه ، ثم صلبه خنقاً في عنقه .

وقال ابن بطوطة في رحلته ص ٢٨٠ طبعة دار صادر دار بيروت :
القطيف [١] مدينة كبيرة يسكنها طوائف العرب،وهم رافضة غلات يظهرون الرفض جهاراً لا يتقون احداً ، ويقول مؤذنهم : بعد الشهادتين اشهد ان

---

(١) القطيف الآن في حكم السعوديين ، وكانت من قبل تشكل جزءاً من البحرين ، لان لفظ البحرين كان يطلق على ما بين البصرة وعمان ، والشيخ يوسف من قرية في البحرين تدعى الدراز .

علياً ولي الله ، وبعد الحيعلتين حي على خير العمل » .

وقال صاحب كتاب «الكنى والالقاب» في ترجمة الشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي : « كان الشيخ حسين المذكور في مكة المكرمة قاصداً الجوار فيها الى ان يأتيه اجله ، ولكنه رأى في المنام ان القيامة قد قامت ، وان الله عز وجل امر بان ترفع ارض البحرين بما فيها الى الجنة،فعدل الشيخ عن الجوار بمكة وجاور بالبحرين الى ان توفي سنة ٩٨٤ »

وان دل طيف هذا الشيخ القديس على شيء فانما يدل على ان الغالبية العظمى من اهل البحرين كانوا آنذاك على تقوى الله وطاعته . ولا ادري : هل اصاب اهل البحرين اليوم ما اصاب غيرهم من الفساد ، وطغيان المادة على الروح ، والباطل على الحق ، والتفرقة والشتات على الاعتصام بحبل الله ، والاستخفاف بالدين على التمسك به ، والعمل باوامره ونواهيه ؟

ومهما يكن ، فان الذي نسمعه عنهم وترامى الينا من اخبارهم انهم ما زالوا يحافظون على الشعائر والطقوس الدينية ، كما كانوا من قبل ، وانهم أشد الناس تمسكا بمبدأ الولاء لاهل بيت الرسول (ص) ، واكثرهم حماسا له ، ونحمده سبحانه الذي لم يسلط عليهم ظالماً غاشما يمنعهم عن ممارسة ما الفوه وورثوه عن الاجداد والاباء ، كما هي الحال في القطيف ، حيث يدفع الشيعة هناك الثمن باهظاً لولائهم لاهل البيت ، بعد ان اصبحوا تحت رحمة حاكم متوحش لا يعرف العدل ولا الرحمة ولا الانسانية .. فلقد اعلن هذا الطاغية الجاهل حرباً مذهبيه تهدف الى ابادة كل طائفة لا تدين بالوهابية [1] بخاصة الشيعة ،

(١) كتبت في جريدة «جبل عامل» عدد ١٥ حزيران ١٩٦٢ كلمة بعنوان «من مناقضات الوهابيين» جاء فيها : ومن مناقضاتهم انهم يأذنون للمسلمين بالحج ، ويؤشرون على جوزات سفرهم، ويحملونهم بطائراتهم وسياراتهم الى بيت الله الحرام ، حتى اذا وصل الحاج المسلم الى مكة المكرمة والمدينة المنورة نادوه : يا مشرك يا كافر .. فان كان مشركا كما يزعمون فكيف اذنوا له بدخول المسجد الحرام ، والله يقول : « يا ايها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام » . وان لم يكن مشركا فلماذا ينادونه يا مشرك ؟!

تنهج الحكومات في هذا العصر على اساس من الحرية والعدالة الاجتماعية ويأبى هذا الحاكم الا ان ينهج في حكمه على مذهب ديني ضيق متحجر ، والا ان يحمل الناس عليه بالسيف . . ومهما تجبر هذا الطاغية وتعاظم ، واعتز باسياده المستعمرين فان امر الله فوق كل امر ، وانه آت لا محالة .

فضيلة الاعتراف بالخطأ

اشرت في مقدمة الكتاب الى انه ليس بكتاب تراجم ، وان موضوع بحثه يختص بالحديث عن ظاهرة او اكثر من حياة عالم من علمائنا الابرار تصلح للعبرة والعظة ، لذا سأترك الحديث عن حدائق الشيخ يوسف البحراني ودرره ولؤلؤته [1] وسائر آثاره النافعة الخالدة ، واتحدث عن فضيلتين لهذا العظيم ، هما من امهات الفضائل ، بل لا يكمل العالم بدونهما ، وان بلغ الغاية في الذكاء والمعارف والتأليف والتصنيف . الفضيلة الاولى الاعتراف بالخطأ والعدول عنه ، والثانية انكار الذات .

كان الشيخ في بدء امره على طريقة الاخباريين، وحين تقدم في مداركه وعلومه عدل الى طريقة المجتهدين – وايضا يعبر عنهم بالاصوليين – واعلن خطأه على الملأ [2] وقام يدعو الى الحق ، ويشهد بالقسط ،ويرد على الاخباريين بمنطق العقل والدين ، بخاصة على محمد امين الاخباري الاسترابادي الذي اكثر من التشنيع على المجتهدين بعامة ، والعلامة الحلي بخاصة ، قال الشيخ يرد على هذا الاسترابادي في كتاب «الدر النجفية» ص ٢٥٥ :

---

(١) للشيخ يوسف مؤلفات كثيرة ، اهمها الحدائق ، ومنها الدرر النجفية ، ولؤلؤة البحرين، والشهاب الثاقب ، واعلام القاصدين وسلاسل الحديد ، وغيرها.

(٢) روضات الجنات ورجال المقمقاني .

« ان المجتهدين رضوان الله عليهم لم يألوا جهداً في اقامة الدين ، واحياء شريعة سيد المرسلين ، ولاسيما آية الله العلامة الذي قد اكثر -الاسترابادي- من الطعن عليه والملامة . . فان العلامة بما الزم به علماء المخالفين من الحجج القاطعة والبراهين ، حتى آمن بسببه الجم الغفير ، ودخل في التشيع الكبير والصغير ، وصنف من الكتب المشتملة على غوامض العلوم والتحقيقات ، حتى ان من تاخر عنه لم يلتقط الا من درر نثاره ، ولم يغترف الا من بحاره ، وقد صار له من اليد العليا عليه -اي على الاسترابادي- وعلى غيره من علماء الفرقة الناجية ما يستحق به الثناء الجميل ، ومزيد التعظيم والتبجيل ، لا الذم كما اجترأ عليه به قلمه وعلى غيره من المجتهدين » .

وما الثناء على العلامة ، والاشادة بمجهوداته ، والتسبيح بعلومه الا ايماناً باقوال المجتهدين وأعمالهم : والا تقديساً لطريقتهم ومبادئهم . وليس من شك ان صاحب الحدائق لو لم يكن من الراسخين في العلم لما ادرك عظمة العلامة ، ولو لم يكن من المؤمنين المخلصين لما رد على الاسترابادي بهذه الحماسة والحرارة . لقد اخطأ الطريق صاحب الحدائق في اول امره ، وحين تكشف له عدل اليه ، ووقف هذا الموقف الشريف النبيل ، واذا كان الاصرار على الخطأ جبناً ونقصاً يعوق عن التقدم والكمال فان الاعتراف به والعدول عنه شجاعه وتواضع ، وتضحية بالرغبات ، وكمال في الدين والعقل والعلم ، وكل هذه الصفات ظهرت مجتمعة في صاحب الحدائق باصدق معانيها .

وقد رأيت من يصر على الخطأ مع علمه بـه لا لشيء الا الخوف من ان يقال : انه اخطأ . . وهذا عين الرياء والنفاق . . ومن هنا كان الاصرار على الخطأ اشد قبحاً من الجهل المركب ، لان الجاهل قد يعذر في بعض الاحيان ، اما المصر فلا عذر له بحال ، لانه ترك العمل بعلمه عن قصد وتصميم عناداً لله وللحق .

وقد يتساءل القاريء عن الفرق بين المجتهدين والاخباريين ؟.

الجواب

لا فرق بينهما في اصول الدين والمذهب فهم – جميعـاً – يؤمنون بالله والرسول واليوم الآخر ، وبالولاء والمتابعه للأئمة الاثني عشر، وانما الاختلاف وقع في بعض مباديء التشريع ، واهم مبدأ اختلفوا فيه هو ان ادلة الاحكام الشرعية عند المجتهدين اربعة : الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، امـا الاخباريون فلا يأخذون بالاجماع والعقل ، ويحصرون دليـل الشرع بالكتاب والسنة فقط ، بل اقتصر بعضهم على السنة ، لانه لا يجوز لاحد – في زعمه – ان يفسر آية من آي الكتاب ويعمل بها الا بشاهد من السنة ، وعليه يكون العمل بالسنة لا بالكتاب .

وقد اورد الشيخ الانصاري في كتاب الفرائد المعروف بالرسائل الادلة من السنة وغيرها على صحة العمل بظواهر الكتـاب ، وذكر البراهين الكافية على الاخذ بدليل العقل القاطع الكاشف عن الحكم الشرعي ، اما الاجماع فقـد طعن فيه ومزقه تمزيقاً .. [1] وعلى أية حال ، فليس من غرضي ان اذكر آراء المجتهدين والاخباريين ، وما رد به اولئك على هؤلاء وانما هدفي الاشارة الى ان صاحب الحدائق ابتدأ اخبارياً ، وانتهى اصولياً مجتهداً .

---

(١) لم ار شيئاً كثر مدعوه ، والمتشبثون به مثل الاجماع ، حتى اصبح التمسك به فوضى ، او شبيهاً بالفوضى ، فكل من اعوزه الدليل يلتجيء الى الاجماع ، بل قد يفتي فقيه بشيء ويستدل بالاجماع ، ثم يعدل ويفتي بضده ، ويستدل بالاجماع ، وآخر ما اطلعت عليه مـا جاء في الدرر النجفية ص ٢٨٢ لصاحب الحدائق من ان بعض معاصريه افتى بتحريم كل مأكول او مشروب سقطت فيه نقطة من عرق الانسان او دمعة من عينه او شيء من بصاقه او مخـاطه مدعيا اجماع المتقدمين والمتأخرين، مـع العلم بانه لا اساس لهذا الاجماع من الصحة ، وانـه لا شك في عـدم التحريم .

الفضيلة الثانية

روى الشيخ عبدالله المقمقاني في كتاب « تنقيح المقال » عن ابيه ان المولى البهبهاني سئل عن الصلاة خلف الشيخ يوسف صاحب الحدائق – وكانا متعاصرين – فقال : لا تصح . . وسئل الشيخ يوسف عن الصلاة خلف البهبهاني ؟ . فقال : تصح .. فقيل له : كيف تصححها خلف من لا يصحح الصلاة بصلاحتك ؟! .. قال : وأية غرابة في ذلك ؟! .. ان واجبي الشرعي يحتم علي ان أقول ما اعتقد ، وواجبه الشرعي يحتم عليه ذلك ، وقد فعل كل منا بتكليفه وواجبه . . وهل يسقط عن العدالة لمجرد انه لا يصحح الصلاة خلفي ؟!..

ارأيت الى هذا القلب الكبير الذي لا يخفق بغير الايمان ؟.. ارأيت الى هذا الصدر الرحب الذي يتسع للعدالة ، وان تكن عليه لا له ؟.. أرأيت الى هذه النفس الزكية الطاهرة من العجب والتكبر ومن كل شائبة ، هذه النفس التي لا تعرف الا الصدق والانصاف والتواضع ..

وليس من شك ان هذا المنطق غريب على الاكثرية الغالبية من شيوخ هذا العصر .. لان كل شيخ من هذه الاكثرية او الكثرة يرى الدين مجسما في شخصه بالذات .. فعدم الثقة به معناه عدم الثقة بالدين ، وهذا هو حد الكفر او الفسق على الاقل ..

اما من جمع بين الدين والعلم والعقل ، اما من ينوب عن المعصوم حقاً ويمثله في حماية الشريعة واحيائها فلا يرى في هذا المنطق اية غرابة مادام الدين يحتم الصراحة واعلان الحق ، حتى ولو كان على النفس « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على انفسكم او الوالدين او الاقربين - ١٣٥ نساء » .

ولا ادري كيف يسمح احدنا لنفسه ان يتكلم باسم الدين ، ويدعي النيابة

عن المعصوم ، ويدعو الناس الى الاقتداء به ، مع العلم بانه لا يقتدي بمن ادعى النيابة عنه عندما يمتحن بكلمة تشبه كلمة البهبهاني بحق الشيخ يوسف ... بل يتنكر لقائلها ، ويبخسه جميع حقوقه ، ويسلبه اظهر ما تحلى به من صفات واذا نصحه ناصح بالكف او الاعتدال قال ان واجبي الشرعي يحتم علي هذا واكثر من هذا ..

والان -ايها القارىء- هل ظهر لك الفرق بين الانانيين والمزيفين الذين يكيفيون الدين حسب شهواتهم واهوائهم ، وبين صاحب الحدائق الذي اتقى الله حقا ، ونطق بكلمة الحق والاخلاص مؤثراً امر الله ومرضاه على نفسه وهواه .

ونختم هذه الكلمة بالمقارنة التالية :

سألت شيخا عاد من النجف الاشرف الى بلاده عاملة : هل بنيتم-سيادتكم- على الاجتهاد ؟

فقال : ألمثلي يقال هذا ؟!

وتعرض الشيخ يوسف صاحب الحدائق في كتاب « الدرر النجفية » ص ٥٣ لمعني الاجتهاد ، وللشروط المعتبرة في الفقيه ، ولاقوال العلماء ، ثم قال ما نصه بالحرف الواحد : و « انا اقول : وان كنت ممن يقصر عن السباق في مضمار هؤلاء الفحول ، ويكبو جواده عن اللحاق في ميدان تلك العقول »

وهكذا علماء آل البيت (ع) يزدادون تواضعاً كلما ازدادوا علماً . (توفي سنة ١١٨٦ ﻫ) .



المولى محمد صالح المازندراني

كانت اسباب العيش -فيما مضى- غيرها اليوم ، فكان الشاب اذا استقبل الحياة ، وبحث عن الرغيف لا يجده بسهولة ، وقد لايجده بحال ، حيث لا مصانع ولا مؤسسات تستوعب الالوف من العمال ، ولا بنوك ودوائرحكومية تضم المئات من الموظفين ، ولا صحف ومحررين وموزعين ، ولا مواصلات تنقل الانتاج من بلد الى بلد في يوم او بعض يوم للمحتاجين والمستهلكين ، كما هي الحال اليوم .

اجل ، شيء واحد كان ميسورا لكل راغب، وهو طلب العلم ، فالمدارس كانت ترحب بكل طالب بلا وساطات وشفاعات ، ولا رسوم للتسجيل والتدريس ، ولا ثمن كتب ودفاتر .. فلقد كان اخيار الاغنياء يبنون المدارس ويقفون عليها الوقوف الكثيرة ، فكان الطالب اذا دخل المدرسة اعطي غرفة للسكن ، وحاجته من الخبز - الجراية - او قليلا من النقود ، بل ان بعض المدارس كانت تقوم بكل حاجات الطلاب الضرورية والكمالية كمدرسة المستنصر بالله ببغداد « فانها كانت توزع يوميا الاطعمة مطبوخة على طلابها .. وتوزع ايضا الحلوى والفاكهة ، والصابون ، عدا ما كان يهيأ لهم من الحصر ، والسراج ، والزيت ، والفرش ، والحبر والورق ، والاقلام للاستنساخ ، وعدا

الماء البارد الذي كان يهيأ لهم في الصيف ، والحمام الحار في الشتاء ، يضاف الى ذلك التعهد والخدمة الممتازة التي كانوا يلقونها ممن عين لخدمتهم »[1]

فكان الذين لا يجدون حيلة ولا وسيله للعيش يلجأون الى هذه المدارس فراراً من الجوع والتشريد . ولكن كم في بيئة الفقر من اسرار لو مهد السبيل لظهورها لأتت بالعجب العجاب .. وكانت تلك المدارس افضل السبل لابراز هذه الكنوز والمواهب ، فسرعان ما يذوق الطالب الفقير حلاوة العلم ، حتى ينقطع اليه ، وينصرف عن كل شيء سواه ، ويتحمل في سبيله من الصعوبات والمحن ما لا يحتمله ثري ولا ابن ثري . . وبهذا نجد تفسير قول الغزالي : « طلبت العلم لغير الله فابى ان يكون الا لله » مات والد الغزالي ، وتركه واخاه صغيرين ، ولم يترك لهما شيئاً مذكوراً ، واوصى بهما لصديق له ، فقال لهما الوصي : انا رجل فقير ليس عندي ما اعينكما به ، فعليكما بمدرسة من هذه المدارس .. فالغزالي طلب العلم للعيش في اول امره ، ولما انس به ، واطمأنت اليه نفسه نشده خالصاً لوجه الله والعلم ، فكان عظيماً في العالم كله ، لا في العالم العربي والاسلامي فحسب .

وهذا او قريب منه ما حدث للمولى محمد صالح بن احمد المازندراني (توفي سنة ١٠٨١ هـ) فقد كان ابوه فقيراً معدماً يسعى وراء الرغيف ولا يجده ، وكان هو في عيال ابيه ، وفي ذات يوم ، وقد عجز الاب عما يقيم الأود له ولأولاده قال له : اذهب ، واطلب العيش لنفسك ، فلا بد لك من السعي بعد ان بلغت الحال بنا الى ما ترى .

فترك بيت ابيه ، وهو لا يدري ماذا يصنع ؟ . ولا الى اين يتجه ؟. وبالتالي ، لم يجد ملجأ الا تلك المدارس ، فهاجر الى اصبهان ، ودخل مدرسة

---

(١) تاريخ علماء المستنصرية لناجي معروف ص ١٧ طبعة ١٩٥٩ .

تعطي لطلابها رواتب حسب درجاتهم ومراتبهم في العلم والتحصيل ، وكان راتب صاحبنا ادنى الرواتب كلها لا يكاد يفي بالضروره لمأكله ، لانـه كان لا يزال مبتدءاً .. وكان لا بد له كغيره من الطلاب ان يراجـع دروسه في الليل ، كي يتهيأ لتفهمها من الاستاذ في اليوم التالي ، ولكن انـّى له بالمصباح وثمن الزيت .. واخيراً وجد الحل ، فقـد كان للمدرسة بيوت خـلاء تضاء في الليل ، فكان يذهب اليها ، ويقرأ في الكتاب على ضوئهـا ، وهو واقف على قدميه الساعات الطوال .. وبقي على ذلك امداً طويلاً ، حتى تقدم في العلم ، وزاد راتبه بحيث استطاع ان يقتطع منه ثمن الضياء .

وكان يقول : انا حجة الله على كل طالب .. فان احتج الطـالب لكسله وعدم نجاحه بالفقر فلا احد افقر مني ، وقد مضى عليّ امـد غير قصير ، وانا لا اقدر على ضوء غير ضوء الخلاء ، وان تذرع بوقوف الذهن ، فـلا احد اسوأ مني ذهناً ، اما كبر السن فقد ابتدأت بتعلم حروف الهجاء بعد الثلاثين من عمري ، وقد بذلت كل مجهود،حتى منّ الله عليّ بما قسمه لي من المعرفة..

ونستخلص من هذا كله ان سبيل العلم تنحصر باخـلاص النية والجهد المتواصل ، وتذليل العقبات ، وتحمل الصعوبات ، وان طريق الكـمال ، اي كمال صعب مستصعب يقتضي التضحية وانكار الذات والاستمرار في مقاومة الميول والرغبات – مهما طال الزمن – حتى بلوغ الغاية ، ومحال ان يبلغهـا احد اذا أخلد الى الراحة ، وحب الذات .. ان الله سبحانه قد يمنح عبـده الصحة والمال والسلطان بدون عناء ، اما العلم فلا يناله احد الا بعد الجهود ، ودفـع اغلى الاثمان ، فلقد رأينا من ورث المال والجاه عن الاجداد والآباء ، ولم نر احداً يرث العلم عن ابيه ، كما يرث المتاع والعقار .

لقد اجتمع على المولى الصالح ثلاثة عوامل : الفقر الذي الجأه الى السهر في بيت الخلاء ، ووقوف الذهن ، والتقدم في السن ، ومع ذلك بلـغ من العلوم

والمعارف المراتب العليا ، والف الكتب القيمة النافعة ، مثل شرح اصول الكافي ، وشرح المعالم ، وشرح اصول الزبدة ، وشرح قصيدة البرده ، الى غير ذلك من الحواشي والرسائل واجوبة المسائل.. ان المعول عليه في تحصيل العلم بعد الاتكال على الله سبحانه انما هو الجد والثبات وعدم تبذير الاوقات كما قدمنا ، لا على الغنى ولا الذكاء ، ولا صغر السن ، وان الجد المواضب على الدرس لا بد ان يبلغ النجاح مهما تكن العوائق ، وان كلمة محال لا موضوع لها فيما يتعلق بتحصيل العلم مع توطين النفس على تحصيله بكل ثمن .

واليك هذا الشاهد : لي جاران : احدهما فقير يسكن في غرفة صغيرة مع عائلة يبلغ عدد افرادها سبعة يعيشون في ضيق وحرج ، وكان اصغرهم (ز) طالباً في المدرسة، وكان يراجع دروسه ليلاً في هذه الغرفة، وجوها الصاخب المزعج .. اما الثاني فكان ابوه موسعاً عليه في الرزق ، يملك داراً من طابقين ، ويسكن في الطابق العلوي ، وهو مؤلف من ست غرف ، وله ولد واحد يسكن في غرفة مستقلة ، وهو (ع) وابوه ينفق عليه بسخاء ، ولا يرد له طلباً ، ولكن (ز) كان ينجح في الامتحانات ، اما (ع) فكان يرسب لانصرافه عن الدرس والمراجعة ، وكان اذا سأله ابوه ، وعاتبه يقول له : انا لا استطيع ان اقرأ واراجع الا اذا كنت في طابق خامس اصعد اليه «بالاسنسول» ..

فليس الفقر – اذن – سبباً للفشل والرسوب ، ولا الغنى موجباً للنجاح ، وقد عرفنا من سيرة العظماء ان بيئة الفقر تصنع الرجال الذين يعتمد بهم في المهمات والملمات ، اما المدللون المترفون فهم اكثر الناس فشلا في هذه الحياة ، واشبههم بالمشلولين وارباب العاهات .

وبالنهاية ، فان هذا الشيخ الصالح من اظهر الافراد المعنيين بقوله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

صاحب الجواهر

او صاحب معجزة القرن التاسع عشر ، اليس معنى المعجزة ان يعجز كل انسان عن الاتيان بمثلها الا صاحبها ؟.. ومنذ وجد للاسلام فقهاء ، ومؤلفون في التشريع ، حتى اليوم لم يؤلف احد مثل كتاب الجواهر في سعته واحاطته وعمقه وتدقيقاته ، وعرض الاقوال وتمحيصها .

نقل صاحب «روضات الجنات» في ترجمة العلامة الحلي ان رجلا قال في محضر المجلسي صاحب البحار : ان تآليف العلامة بلغت كراسة لكل يوم من حياته . فقال المجلسي : ونحن بحمد الله لو وزعت تصانيفنا على ايامنا لكانت كذلك . فقال له بعض من حضر : انت نقلت عن غيرك ، اما العلامة فقد بحث وحقق . فقال المجلسي : اجل ، وهو كذلك .

ويصح هذا في حق مؤلف الجواهر الشيخ محمد حسن ، فكتابه على ضخامته كتاب بحث وتحقيق لا كتاب نقل وتلفيق من هنا وهناك .. ومنذ سنوات كتبت عنه كلمة نشرتها مجلة النجف ، وليس لدي نسخة عنها ، ولا اذكر رقم العدد ، وقد ترجم العالم المظفر الشيخ محمد رضا للجواهر وصاحبها ترجمة مفصلة قيمة طبعت في اول الجزء الاول من الطبعة الحديثة للجواهر جاء فيها:

« كان الشيخ محمد حسن آل يس عالماً من اعلام تلاميذ صاحب الجواهر فوجه به الى بغداد ليكون مرجعاً دينيا للناس هناك ، وبعـــد مدة قدم النجف احد تجارها يحمل الى الشيخ من الحقوق الشرعية ثلاثين الف «بشلك» العملة المتداولة يومئذ ، فانكر عليه الشيخ ان يحمل مثل ذلك اليه ، مـــع وجود الشيخ محمد حسن بين ظهرانيهم ، ورده ، وقال : اظن ان الشيخ محمـد حسن سيهلك جوعاً .. ثم بعد هذا توافد اهل بغداد لزيارة الغـدير ، حيث مجتمع الوفود فدعا الشيخ الناس للاجتماع في الصحن العلوي المطهر ، وخطب فيهم مذكراً لهم فضل العلماء ، وندد بالبغــداديين ، اذ قصروا في حق الشيخ محمد حسن ، وبين لهم ان هذا سبب غضبه عليهم ، وحجبه لهم ، فما كان من البغداديين الا ان نهضوا الى الشيخ محمد حسن ، وكان حــاضرا معتذرين ، وحملوه معهم مبجلا الى بغداد ، فكان له من الشأن ما طبق ذكره الخافقين ».

كلمة واحـــدة من الشيخ الكبير قلبت الوضع رأساً على عقب ، ورفعت شأن الدين واهله ، واحيت الامل والنشاط في نفس كل عالم وطالب ، وحببته بالعلم والجد في سبيله ، كلمة واحدة جعلت للشيخ آل يس ذكـــرا « يطبق الخافقين » .. اما سبب هذا المفعول العجيب فهو انها كلمة لله لا لسواه ، وكل ما صدر عن هذا المظيم كان خالصاً لوجه الله ، نقل عن صاحب تكملة امـل الآمل المرحوم السيد حسن الصدر انه قال: ان توفيق كتاب الجواهر ورواجه يعود بالدرجة الاولى الى اخلاص مؤلفه ، وطيب سريرته ، وتواضعـــه لله وللناس .

ومن الذي يعاتب الشيخ ويسأله اذا قبض الثلاثين الفا ، وسكت عن الشيخ آل يس ؟!.. ولكن حرصه الشديد على اعزاز الدين هو الذي اغضبـه وأثار حفيظته ، ودفعه الى رفض الاموال ، وحجب البغداديين ، ثم اعلان غضبـه عليهم من على المنبر ، وفي ملأ من الناس ، ليؤدب بهم القاصي والداني ، فلا

يجرأ بعد على مثلها احد ، كان ويكون ما دام الشيخ حيا،ولا يتهـاون بادنى طالب ينتسب الى الدين - اهله .

حدثني المرحوم اخي الشيخ عبد الكريم عن استاذه السيد عبد الهـادي الشيرازي انه قال : ان الانسان ، اي انسان محال ان يقوم بعمل يحتاج الى جهد ، وتحمل المشاق الا مع الترغيب والتشجيع ، حتى النبي (ص) فانـه تحمل ما تحمل، لأن الله كان معه في جميع مواقفه، ومن ايقن ان الله معه هانت عليه الصعوبات ، اما تشجيع النبي لعلي فيكفي قوله : « يا علي لولا ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم قولا لا تمر الا اخذوا من تراب رجليك » .

وبديهة ان الف كتاب وخطاب من الناس في الثناء والمديح لا يوازي كلمة تشجيع يقولها السيد والرئيس .. ان الحنو الابوي يدفع بالابناء الى الامام ، ويشجعهم على الجد والاقدام .

واسجل هنا للتاريخ والعبرة الحادثة التالية :

حين الفت « سلسلة عقيدة الاسلام » : الله والعـقل . النبوة والعقل . الاخرة والعقل . علي والقرآن . مفاهيم انسانية في كلمات الامام الصادق . لم افكر ابداً في اهدائها لاحد من السادة المراجع خشية ان لا تتسع اوقاتهـم لقراءتها .. ولكن احد العلماء الغيورين رغب الي ان ارسلها اليهم ، وذكر الاسمـاء .

قلت : ولماذا ؟ .

قال انهم يحبذون امثال هذه الكتب ، ويشجعونها ، ويدعون اليها .

قلت . هم في شغل عنها ، وعن مؤلفيها .

قال : ابيت الا ان تقول هكذا.

قلت : هو ما اقول .

قال : كيف ، وهم قادة الدين وحماته ، وانت من المتطوعين في خدمته؟.

ثم اصر وألح ، فامتثلت ، وارسلت « السلسلة » الى اثنين من المراجع ، وسألت الله ان يكذب ظني ، ويصدق ايمان الشيخ .. اما احدهما فتجاهل ، كأن لم يكن شيء .. وقد توفي رحمه الله منذ سنة وبضعة اشهر – ملحوظة نحن الآن في سنة ١٣٨٢ هـ – وارسل الثاني كتاب شكر واعلام بالوصول ، وانتهى كل شيء .

ولا اهدف من قولي هذا الى طلب التشجيع من احد ، أو ان يشتري المرجع نسخاً من مؤلفاتي ، ويوزعها على المكاتب العامة ، ومن يحتاج اليها من الشباب .. كلا ، فان لي – والحمد الله – من اقبال القراء على ما اكتب وانشر وما ارجوه من ثواب الله خير مشجع ، على ان التشجيع بالنسبة اليّ لا يجدي نفعاً بعد ان مارست المهنة اكثر من ثلاثين عاماً ، وبعد ان وقفت على عتبة الستين .. فان كنت قد بلغت الغاية فذاك ، والا فلن ابلغها ، ولو بالف تشجيع وتشجيع .. واراني سعيداً لو سلمت من الشيوخ لا علي ولا ليا .
وانما اردت من هذه الاشارة ان ألفت انظار الآباء الكبار الى من يتوسمون فيه الخير من ابنائهم الناشئين .

ورحم الله صاحب الجواهر ، فقد كانت له مناقب لا يبلغها الحصر :
« منها » معرفته بابناء العلم الكبار والصغار ، وخبرته بنشاطهم واعمالهم ، وتفقده لاحوالهم ، وترتيبه لدرجاتهم ، ووضع كل واحد في المرتبة التي يستحقها .
و «منها» عقله العمراني وحبه للخير ، واهتمامه بالمشاريع العامة ، واقدامه

عليها مهما تكن النتائج ، والتضحية من اجلها بالغالي والنفيس ، ولا شيء ادل على ذلك من اقدامه على حفر القناة من الفرات الى النجف .. وقيل له حين صمم وعزم : انها تحتاج الى نفقات تنوء بحملها خزائن الملوك .. قال : اجل ، واني على علم من ذلك ، وقد قدرت لهذا المشروع وزن ما اخرجه من الرمل ذهباً .. وبالفعل تم ما اراد ، وشربت النجف الماء في عهده بعد ما عانت من العطش القرون الطوال [1] .

ولا تفسير لهذا الاقدام الا الايمان بالله ، والا بالثقـــة بما عند الله ، والا الطاعة لله التي يقول صاحبها للشيء كن فيكون .. واذا عجز الملوك عن حفر القناة فان ملك الملوك لا يعجزه شيء .

و«منها» عهده الى الشيخ مرتضى الانصاري ،واختياره للرئاسة والمرجعية وايثاره على ولده ، وفيهم من هو كفء لها واهل .. واي عجب في هذا ؟. لقد سمع شيخ الجواهر نداء الله فلباه ، واستجاب لقوله سبحانه . « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون — ١٥٢ الانعام » .. ثم اليس من عقيدتنا — نحن الشيعة — وجوب تقديم الافضل على الفاضل في الامامة ؟.. والشيخ الانصاري افضل واصلح ، وما كان شيخ الجواهر ليدع الاصلح الى غيره حباً بقريب ، او كرها لبعيد ..

(توفي سنة ١٢٦٦ هـ)

(١) المظفر «الجواهر» ج ١ الطبعة الحديثة .



الشيخ مرتضى الانصاري

اخذ هذا الشيخ العظيم من العلم ما سيطر به على عقول العلماء منذ يومه الى يومنا هذا ، وسيبقى مسيطراً عليها الى آخر يوم ، اخـذ من العلم اشياء ، ولم يأخذ من الدنيا شيئا بعد ان اصبحت في يده ، بل وهبها زاهدا فيهـا الى المحرومين ، وبني الحاجات ، وبلغ من الشهرة والعظمة منزلة لم يبلغها عالم بعده، وما بلغها عالم قبله الا اقل من القليل .

ويستطيـع ان يدرك العارف الخبير من النظرة الاولى الى كتبه انه لم يكن عظيما ، لانه جمع بين موهبة الحفظ ، وموهبـة الذاكرة ، وانه كان يحفظ اقوال العلماء بسرعة ، ولا ينساها ابداً ، تماماً كما تسجل الألفاظ على الشريط ، او في اسطوانة .. بل كان عظيما لشخصيته المستقلة التي لا تعتمد على غيرها ، ويعتمد عليها الغير ، ولفكره الجبار الذي يفتح له ابوابا من المعرفـة لا بابا واحداً ، فكر يصرفه في كل وجه ، وفي كل ناحية ، ولا يقف عند حـد ، فكر ينقد بجرأة القدمـاء والمحدثين ، متفرقين ومجتمعين ، ويعطيك الدليل القاطع على ان « الاوائل لم يأتوا بشيء » وانهم تركوا له كل شيء .. فكر يتدبر الاشياء ويتعمقها ، ويوزن الوقائع في موازينها ، ثم يعطي لكل شيء اسمه الحقيقي ، ولكل واقعة حكمها الواقعي .

يقول بعض الفلاسفة : لا وجود حقيقي لشيء ابداً غير الفكر ، وكل ما خرج عن نطاقه فليس بشيء ، وان ما نراه من الاجرام الارضية والسماوية ان هو الا مظهر من مظاهر الفكر .

ولنا ان نقول مثل هذا في الشيخ الانصاري ، فان حياته كلها فكر ، وكل ما يخرج عن الفكر والعقل فليس من حياة الشيخ في شيء .

وادع الحديث عن علومه وتحقيقاته الى الحديث عن زهده وخلقه ، فان الهدف الاول لهذا الكتاب ضرب الامثال من اخلاق العلماء ، كما اشرنا الى ذلك مراراً .

ان كل معمم يحفظ هذا الحديث الشريف : « العلماء ورثة الانبياء » . وايضاً الكل او الجل يطبقه على نفسه جاهلاً او متجاهلا ان ميراث النبوة لا يكون ولن يكون الا لمن تخلق باخلاق الانبياء ، وسار بسيرتهم كالشيخ الانصاري الذي قال — وهو الصدوق — : ما فعلت فعلا ، ولا قلت قولا الا لله .. اجل ، هكذا العالم الصادق في علمه ومعرفته يعبد الله في كل شيء يوافق ارادته عز وجل لا في الصوم والصلاة فحسب .

رآه طالب مبتديء في الحضرة الشريفة ليلة القدر ، فسأله :

اي العبادات افضل في هذه الليلة المباركة ؟.

الشيخ : في اي كتاب تقرأ ؟.

الطالب : في ألفية ابن مالك .

الشيخ : افضل الاعمال ان تعود الى غرفتك ، وتطالع الالفية حتى يأخذك النعاس .

وعلينا ان ننظر الى هذا الدرس كمبدأ يؤمن بـه المبتدئون في الدراسة

والمنتهون منهـا على السواء ، فيؤثرون العلم وممارسته على كل شيء ، حتى على الركوع والسجود ، والتهليل والتكبير ، فان الاقبـال على الله بالعـلم اعظم وافضل من الاقبال عليه بالصلوات والمناجاة ، اقول هذا بلوعه واسف ، لأن اكثر من عرفت من الشيوخ قد تركوا الامرين معا ، فلا هذا ، ولا ذاك ، بل حق الارشاد والتعليم ، وانصرفوا الى القال والقيل ، والتزمير والتطبيل لكل من دفع الثمن..واذا قال لهم قائل :ان الوقت لا يستدرك، ولا شيء اعز منه الا الافادة والاستفادة «لوّوا رؤوسهم ورايتهم يصدون ،وهم مستكبرون» .

وقال السيد الامين في اعيان الشيعة ج ٤٨ ص٤٤ :

«انتهت اليه رئاسة الامامية العامة في شرق الارض وغربها بعد وفاةالشيخ علي بن الشيخ جعفر ، وصاحب الجواهر ، وصار على كتبـه ودراستها معول اهل العلم ، حتى لم يبق احد لم يستفد منها ، واليهـا يعود الفضل في تكوين النهضة العلمية الاخيرة في النجف الاشرف ، وكان يمـلي دروسه في الفقـه والاصول صباح كل يوم واصيله في الجامع الهندي ، حيث يغص فضاؤه بمـا ينيف على الـ ٤٠٠ من العلماء والطلاب .

وقد تخرج عليه اكثر الفحول مثل الميرزا الشيرازي ، والميرزا حبيب الله الرشتي ، والسيد حسين الترك ، والشربياني ، والمقمقاني ، والميرزا ابو القاسم صاحب الهداية ، وانتشرت تلاميذه ، وذاعت آثاره في الافاق ، وكان من الحفاظ..جمع بين قوة الذاكرة، وقوة الذهن، وجودة الرأي ، حاضر الجواب لا يعييه حل مشكلة ، ولا جواب مسألة .

وعاش مع ذلك عيشة الفقراء المعدمين ، متهالكاً في انفاق كل ما يجلب اليه على المحاويج خصوصاً في السر غير مريد للظهور والمباهاة بجميع ذلك ، حتى لم يبق لوارثه ماله ذكر قط .. وكان اذا سافر للزيارة يعـادله في المحمل

خادمه ، وتحت كل منها لحاف بطانته من الكرابيس الاخضر بلا ظهارة ، ومعها قدر صغير ، موضوع في وسط المحمل لطبخ غذائها »

الرئيس الاول للطائفة دون مزاحم ومعارض لا يرضى بلحـــافه احوج المحاويج .. الرئيس الذي يملك الاموال والنفوس يصحب معه في سفره ركوة وقدرتماما كا تفعل الدراويش .. ولماذا فعل ذلك ؟!.. وهل له من تفسير الا علمه وايمانه بان الحقوق شرعت لسد حاجة المعوزين ، لا ليتنعم بها الرؤساء ، والسادة العلماء وابناء العلمــاء ؟!.. هل من سبب الا الاقتداء بامير المؤمنين ، ومواساة اضعف المستضعفين ؟! ثم الشعور بالغبطة لهذا الاقتداء ، وهـــذه المواساة.. هل من موجب الا انه النـــائب حقاً عن المعصوم الـذي قـرن الله طاعته بطاعته ؟!..

بهذا العظيم وامثاله صار للتشيع والشيعة كيان ووجود وتاريخ .. ومحال ان يكونوا شيئاً مذكوراً بين الامم والطوائف اذا لم يكن لهم – الان وبعـد الان وفي كل آن – مرجعاً اولا كالشيخ الانصاري .. وبأي شيء يعتزون ويظهرون اذا لم يكن فيهم من يمثل محمداً او المسيح ؟!

وبالتالي ، فقد كان بامكان الشيخ الانصاري – وهو المفكر الغواص الذي يدعم كل كلمة يفوه بها بحجج تخرس الناطقين ، وتفحم المعاندين– كان بامكانه ان يحتكر لنفسه وولده ما يشاء من الاموال ، ويبرر ما يفعل بالف دليل.. ودليل ولكنه ملاك لا شيطان يلبس الحق بالباطل ، وعـــالم امين ، لا لص محتال يتستر بثوب العلماء والامنـــــاء .. ان الاحتيال على الدين ، والتلاعب بالاحكام باسمه اشد خطراً عليه من جيش الكفر ، ومن مدارس التبشير ضد الاسلام ، ومن هذا التيار الملحد الذي نرفع عقيرتنا بالشكوى منـــه صباح مساء ..

« توفي سنة ١٢٨١ هـ »

استاذ السيد محسن الامين

ترجم السيد محسن الامين في الجزء الثاني والثلاثون من «اعيان الشيعة» لاستاذه الآقا رضا الهمداني .

الطالب النجفي شديد الصلة باستاذه يعرف من احواله واخلاقه ما يعرف الصديق من صديقه ، والولد من والده ، وكذا الاستاذ لا يخفى عليه شيء من احوال تلميذه .. يذهب الاستاذ – في غير النجف – الى المدرسة والجامعة في الوقت المعين ، فيلقي الدرس في الصف ، وهو ينتظر صوت الجرس بفارغ الصبر ، فاذا سمعه ذهب الى شأنه لا يلوي على شيء .

اما في النجف فيذهب الطلاب الى بيت الاستاذ – في الغالب – بخاصة اذا كان عددهم قليلا ، وقبل الشروع بالدرس يتحدث الاستاذ عن شئونه ، والطلاب عن شئونهم ، عن الاصدقاء والاعداء ، والغذاء والعشاء ، وعن الديون واجرة البيت ، وعن الجبة الجديدة التي اشتراها طالب من الطلاب ، والرسالة التي اتت من بلاده ، وما فيها من خبر سار ، او غير سار ، وعن احلام المستقبل المشحونة بالخوف والرجاء واللذة والالم .. واذا جاء لاحدهم دراهم معدودات من اهله « الخرجية » انتشر الخبر بسرعة البرق ، وتسابق

الاصحاب والاحباب الى تهنئته بـ « قرت الاعين » ويتقبلها الطالب مغتبطاً شاكراً .

حضر السيد الامين على الشيخ الهمداني نحو ثماني سنوات ، وقال في وصفه:

« كان زاهداً في الدنيا معرضاً عنها .. عاشرناه امداً طويلاً ، فلم نعثر منه على زلة ، ولا صغيرة ، وقد اعترف بذلك غيرنا ممن عاشره ، وكانت فيه صفات العلماء المخبتين ، والزاهدين الورعين حقاً ، لم تُسمع في مجلسه غيبة من احد ، واذا شعر من احد الجالسين انه يريد الخوض في ذلك صرف الحديث الى جهة اخرى .

وكان في عصره رجل مشهور بالفضل ، وله حلقة درس ، ومؤلفات مطبوعة ، وكان يقال : انه يطيل لسانه على اكابر العلماء .. فثارت ثائرة جماعة من العلماء ، واصدروا فتواهم بتكفيره ، وارسلوا الى شيخنا المترجم له ليشاركهم في ذلك ،فابى ، وقال : التكفير شيء عظيم لا اقدم عليه .. وصارت يومئذ مسألة الشيخ هادي حديث الناس من العلماء والطلاب وغيرهم في مجالسهم ومحافلهم ، اما شيخنا فلم يكن احد يجسر على ذكر شيء في مجلسه .

وكان شديد التواضع ، حتى مع اصغر التلاميذ والطلاب ، واستمر على خلقه الكريم بعد ان انتهت اليه رئاسة العلم والدين ، وقلده الناس ، فكان وهو الرئيس – يشتري لوازم بيته بنفسه ، ولا يكل ذلك الى احد ، رأيته مرة واقفاً على القصاب ينتظر فراغه ، ليعطيه اللحم ، والقصاب مشغول بغيره من الزبائن .. فصحت بالقصاب ، وقلت له : اعط الشيخ . فقال الشيخ : « ما يخالف » اي لا بأس .. ورأيته مرة يساوم على الحطب .. فقلت له : يا شيخنا كلف غيرك .. فقال : انا لا اغير طريقتي ، وكان

رئيساً مقلداً .

كان يكره الشهرة ، ويحب العزلة ، ولا يرغب في ان يشيعه احد اذا سافر ، ولا ان يمشي خلفه .. فكان يسير في الطريق وحده ، ولا يُحمل امامه الضياء في الليل ، كعادة كبار العلماء ، واذا رآه من لا يعرفه ظنه من بعض فقراء الطلبة .. وكنت امشي معه يوماً ، فاستقبله زائر ، وقال له : هل تأخذ على صلاة ، وتصلي بالاجرة ؟ .. ولم يكن يعمل لنفسه دعاية ، ولا يلتمس من يعمل له ذلك ، ولا يتحدث بشيء يدل على تفوقه وتميزه ».

هذا هو عالم اهل البيت (ع) الذي طلب العلم واذاعه لله لا للاتجار .. هذا هو العالم الذي يحب الامام ان يرى مثله في شيعته .. هذا هو حجة الاسلام الذي يحتج به الله على عباده، ولا يحتج عليه بعلمه، لانه من العاملين به.

وقد تخرج عليه اقطاب كانوا قدوة في الدين ، واعلاماً للشريعة ، ومثلا اعلا للتقى والزهد ، كالسيد محسن الامين ، والشيخ علي باقر ، والشيخ احمد كاشف الغطاء ، واخيه الشيخ محمد حسين ، والشيخ علي القمي والشيخ حسين مغنية ، والسيد محمد سعيد الحبوبي، وغيرهم .. وقد بلغ تلامذنه اسمى المراتب، وتركوا احسن الآثار وانفعها ، وكفي بالسيد محسن الامين صاحب « اعيان الشيعة » ومؤسس المدرسة المحسنية في دمشق ذخراً للاسلام ، وفخراً للمسلمين.

وبهذه المناسبة نشير الى حقيقة يجهلها كثيرون ، وهي ان جامعة النجف وجميع المدارس الدينية في بلاد الامامية تمتاز عن غيرها بان اساتذتها يعلمون بلا رواتب ومخصصات تكفل لهم العيش ، حتى يكون العلم عبادة لوجه الله، لا تشوبه أية شائبة ، تماماً كما كانت الحال في عهد الرسول والتابعين وتلامذة الأئمة الطاهرين ، ومن جاء بعدهم الى القرن الخامس الهجري ، حيث عين نظام الملك الرواتب لمن يقوم بالتدريس ، وقد ثار عليه العلماء واقاموا مأتماً

للعلم خوفا ان يتحول الى حانوت تجاري (كتاب تاريخ العلمـــاء المستنصرية لناجي معروف ص ١٣١٣) .

والذي يوقفنا من الشيخ الهمداني موقف الدهشة والاكبار انه عاش امداً طويلاً يعاني الفقر والبؤس صابراً محتسباً ، حتى اذا اقبلت عليـــه الدنيا ، والقت الامور اليه بازمتها بقي على ما كان من الزهـد والتواضع ، يقف على القصاب والخباز والحطاب ، ولم يخطر له ابداً ان يعمل لتحسين اوضاعـــه المادية ، ويؤمن مستقبل اولاده ، ولا تفسير لهذه الظاهرة الغريبة عن المألوف والمعروف الا ان هذا العظيم لم يكن له اي هدف الا التقوى ، ولا دافع الا الدين ، ولا سعادة عنده الا في العلم والعمل ، ومن هنا كان تلاميذه في التقوى والصلاح يوازون اصحاب الانبياء والاوصياء ، قال السيد محسن الامين :

« استفدنا منه في الفقه والاصول ، فضلا عما استفدناه من اخلاقـــه واطواره وسيرته العملية ، فان انفع المواعظ الموعظة بالافعال لا بالاقوال » .

وصدق الامين فقد كان صورة طبق الاصل عن استاذه ، كان يشتري مـــا يحتاج اليه بنفسه من سوق دمشق ، ويحمله بيده او في طرف جبهتـــه ، وهو الرئيس الاكبر ، وكان اهل دمشق في اول الامر يستغربون ذلك منـــه ، ويلحون ان يقوموا عنه بكل حوائجه ، فيأبى ، ثم اعتادوا ان يروه واقفاً على الدكان ، وحاملا الخبز واللحم والبقول والخضار ، كما كان استاذه الهمداني فكان اذا التقى به احدهم اكتفى بتقبيل يده او ثوبه دون ان يتعارف معه ويسأله التخفيف عنه ..وقال السيد الامين يحدث عن نفسه في كتاب الاعيان ج ٣١ عند حديثه عن الشهيد الثاني ?وتضطرني الحال ، وانا في سن الشيخوخة الى شراء حوائجي من السوق بنفسي ، والى غير ذلك من الاعمال البيتية ولا ازال وقد جاوزت الـ ٨٤ من عمري ازاول ذلك .

انتقل الشيخ الهمداني الى ربه سنة ١٣٢٢ هـ ، وترك مؤلفات ، اهمهـــا كتاب «مصباح الفقيه» ، وهو من المصادر المعتبرة في الفقه الجعفري ، ويمتـــاز بالاحاطة والدقة ، وطبع اكثر من مرة ، وتنافس على اقتنائه العلمـــاء والطلاب .

السيد محمد بن عقيل

هذا الرجل يجب ان ننحني له اجلالا وتعظيما ، وان يتخذ منه العالم العامل قدوة ومثلا اعلا ، فان في حياته دروسا وعبرا لمن يتعظ ويعتبر .

مات ابوه ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وكان قـــد تعلم عليه وعلى بعض علماء حضرموت القراءة والخط والنحو ، وبعض متون الفقة ، وكانت لأسلافه مكتبة عظيمة ، فتابع الدراسة على نفسه ، ولم يدخل جامعة شرقية ولا غربية ، ومع ذلك كان في عداد العلماء والمؤلفين الكبار ، وكتابه النصائح الكافية لمن يتولى معاوية خير شاهد على ذلك .

ورحل من بلاد حضرموت الى سنغافورة والبلاد الجاوية ، وعمره ١٧سنة ، لارشاد اهلها وافادتهم ، فتكللت اعماله بالفوز والنجاح ، فاسس جمعيـــة في سنغافورة ومدرسة ، وانشأ مجلة وجريدتين، ورغب الى الحكومة في تأسيس مجلس اسلامي لاجراء احكام المسلمين كالمواريث والزواج والطلاق ، فأجابته، وترأس بنفسه هذا المجلس ، فذاع صيته ، وامتدت شهرته الى جميع الاقطار الاسلامية والعربية ، فحسده اعداء الفضل والفضيلة الذين لا يملكون غـــير الخيانة والغدر ، وغير الكذب والمكر ، وتالبوا عليه ، وكادوا له ، ودسوا الدسائس ، ولفقوا الاكاذيب ، شأنهم مـــع كل مجاهد مخلص ، ولكن الله

سبحانه نصره عليهم ، فعادوا بالخيبة والخسران .

وكان السيد ابن عقيل يحافظ على اوقاته بكل دقة محافظته على حياته ، ولا يهمل منها لحظة ، ومن اقواله : « مواقيتك مواقيتك » وقال : اعظم عون لي في نجاح مقاصدي توزيع اوقاتي ، وكان يوزعها على اربعة اقسام : وقت للاشغال بالتجارة ، ليستغني بها عن الناس ، ووقت للمطالعة والكتابة ، ووقت لخدمة الناس والصالح العام ، ووقت للراحة .

واراده الملك حسين بن علي سنة ١٣٤٠ هـ ان يكون ناظراً للمعارف بمكة المكرمة فابى ، وقام برحلات الى الحجاز والشام والعراق ومصر والهند واليابان والصين وروسيا والمانيا وفرنسا.. وذهب الى المعرض العلمي والتجاري في فرنسا فرأى علما لدولة اسلامية ، وتحته منبر فصعد عليه ، والقى خطابا بليغاً بين فيه السيرة النبوية ومحاسن الاسلام ، واستمع اليه جمع من الناس ، بينهم كبار المستشرقين ، ولما نزل عن المنبر صافحوه وهنأوه ، واقاموا له في احد الفنادق الكبرى حفلة تكريم .

هذا ملخص لحياة السيد ابن عقيل ، ونستخلص منها الحقائق التالية :

١ ـ ان العلم ليس وقفاً على النجف والازهر ، ولا على اية جامعه من الجامعات .. فكم من رجل هاجر الى النجف ، واقام فيها سنوات ثم خرج منها تماماً كاليوم الذي دخلها فيه ، مع فارق بسيط ، هو الشكل والمظهر ، وعاش ومات ، ولم يشعر به انسان .. وكم من رجل لم يعرف الجامعة ، وهو افضل من عشرات الاساتذة .. ان سبب العلم والتحصيل وملكة الاجتهاد ينحصر في الجد والاجتهاد ومتابعة النشاط ، والاستقلال بالفهم ، لا بتأبط الكتاب ، وعد السنوات في النجف او الازهر ..

٢ ـ ان اهم اسباب النجاح المحافظة على الوقت وان من اضاع اوقاته فقد

اضاع حياته ، حتى ولو كان آية في النجابة والذكاء .. ومحال ان يكون الانسان شيئاً مذكوراً اذا اهمل اوقاته ، وامضاها في اللهو والبطالة ، واذا كانت البطالة في غير المعممين تؤدي الى السرقة والدعارة والفوضى ، وما اليها من الجرائم فانها في المعممين تؤدي الى الحقد والحسد ، والرياء والنفاق ،والدس والافتراء .

٣ – ان العظيم هو الذي يشعر انه في غنى عما يتنافس عليه اهل الدنيا فما طلب احد منصباً الى لانه يحس نقصاً وفراغاً في نفسه ، وان هذا المنصب يسد الفراغ والنقص ، ولو احس بالكمال لما ذهبت نفسه حسرات على المناصب والرواتب .. لقد رفض السيد ابن عقيل منصب ناظر المعارف ، لانه اعظم من ان يستمد مكانته من الكراسي والألقاب .

٤ – ان من ينصرف الى الله وحده ، ولم يوزع قلبه هنا وهناك فلا بد ان يبارك عمله ، ويمنحه التوفيق والذكر الجميل ، اما من يعتمد الاساليب الملتوية ، ويطمح الى الشهرة بالتمويه والخداع فمآله الى الوبال والخذلان.

الشيخ حسن المقمقاني

نقدم هذا الشيخ مثلاً رائعاً في نكران الذات ، والاستخفاف بكل مـــا يتصل بمنافعه الشخصية من قريب او بعيد .. فلقد أتته الشهرة بعد الخمول ، والغنى بعد الفقر ، فزهد بالجاه والمال ، واخذ نفسه بالاسلوب الذي عاشه ، وهو طالب فقير ، ولم يخرج منه الى الترف والملذات ، والكبرياء والاستعلاء بل ازداد للناس تواضعاً ، ومن الله خوفاً .

وكان يفرق على الفقراء والمحتاجين كل ما يصل الى يده من اموال الحقوق، ولا يبقي لنفسه وعياله منها شيئاً ، وكانت تبلغ خمسين الف تومان في السنةاو تزيد ، وكان اذا جاءه حتى في الليل يوزعه في ساعته ، ولا يبقيه الى الصباح ، وكان يقول : من كان اميناً على مال الله فليس له ان يأخذ منه شيئاً لنفسه ، حتى لضرورة العيش ، لان الأخذ لها يجره الى الاخـــذ للتوسعة ، ثم يؤدي به هذا لاقتنـــاء الاملاك والعقارات .

وهنا سؤال يفرض نفسه : من اين كان يعيش هذا الشيخ مع تعففه عـــن الحقوق ؟

قال ولده الشيخ عبدالله في ترجمته : كان يقنع بما يأتيه بعنوان الهديـة ،

حتى الهدية له كان يوزع قسماً منها على الطلاب ..

وكانت حياته بعد الرئاسة كما كانت قبلها ، لم يتغير شيء من مأكله وملبسه ومسكنه ، وسائر معاملاته ، فكان يسكن في دار متواضعة بالاجار ، واهداه احد المحسنين مبلغاً من المال ليشتري به داراً ، ففرقه على الفقراء ، ولما عاتبه صاحب المال قال : لقد اشتريت داراً في الآخرة لا تفنى .. وقيل له : اتبقي اهلك بلا مسكن بعدك ؟! . فقال : الله لاهلي ، وها انا لا املك شيئاً ، وكثيرون غيري لا يملكون دوراً .

وليس من شك ان بناء المسكن وشرائه من الحقوق جائز في الشريعة بالقياس الى غير الرؤساء والمراجع ، اما بالقياس الى هؤلاء فمحل نظر ، لقول امير المؤمنين (ع) « ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس » اي يجب ان يكون الرئيس في عيشه كافقر واحد في المسلمين ، وعليه فلا يحق للمرجع ان يملك درا من الحقوق ما دام في المسلمين من لا دار له .. اللهم الا ان يقول قائل : ان المرجع ليس اماماً من أئمة العدل .. ومهما يكن فان عمل المراجع على شراء الدور من الحقوق لهم ولاولادهم ، وربما كان عمل هذا الشيخ القديس من باب الاحتياط لدينه ، كما هو شأنه في جميع اموره ، وقد عرف الناس من سيرته انه كان يحذر ويخاف من هوى نفسه ، تماماً كما يحذر ويخاف من عدو قوي ، وكان يمنع ارباب العمائم من تلاميذه وغيرهم ان يمشوا خلفه تعظيماً لشأنه ، كما هو المألوف والمعروف اليوم وقبل اليوم من السير خلف المراجع .

وكان بعض السادات في النجف ينال من كرامته ، ولا ينفك عن ايذائه ، ومع ذلك كان يبعث اليه بالاموال والصلات ، وفي ذات يوم بلغه ان عليه ديوناً ، وان اربابها يضايقونه بالمطالبة ، فوفاها عنه ، وقال : الهي انت تعلم

ان هذا السيد يسيء اليّ بدون سبب، وقد وصلته ايثاراً لمرضاتك على هواي..

هذي هي اخلاق ائمتنا الاطهار عليهم افضل الصلوات ، فقد روي ان الخريت بن راشد قال لأمير المؤمنين ايام خلافته: لا أءتم بك، ولن أشهد معك الصلاة ، ولن اءتمر بامرك ، ولن يكون لك علي سلطان .

فقال له الامام : لك ذلك مع عطائك كاملاً، على شريطة ان لا تعتدي على احد ، فان اعتديت عاقبتك بما تستحق .

ولو تجرأ اليوم طالب او عالم فقير ، وقال لمرجع من المراجع : اني لا اصلي بصلاتك، ولا أعتقد انك من أعلم أهل الأرض لألقاه في سلة المهملات.

وارسل احد تجار قزوين الف ليرة ذهباً من سهم الامام الى المرحوم السيد حسن الشيرازي ، فلما وصل الرسول الى العراق وجد السيد منتقلاً الى رحمة ربه ، فأتى بالمال الى الشيخ حسن المقمقاني فرفضه .

وقال للرسول : انه امانة في يدك على ان توصله للسيد ، وقد تعذر عليك ذلك ، فيلزمك ان ترجع الامانة الى اهلها ، او تطلب الاذن بالتصرف من من مرسل المال .

قال الرسول : ان هذه الالف حق لله ، وقد تفحصت وسألت فتعين عندي اعطاءها لك .

قال الشيخ : لا بد من اذن المرسل .

قال الرسول : خذ المال ، وان لم يرضى المرسل دفعت له المبلغ من مالي الخاص .

قال الشيخ: ان هذا المال بعينه ليس لك ، فاذا اردت ان تؤدي الحق ،

فأده من مالك الخاص .

فاخذ الرسول المال ومضى .

بهذا عرف علماء الشيعة ، وامتازوا عـــن غيرهم ، لا تغرهم صفراء ولا بيضاء ، ولا يحرفهم الطمع الى تأويل الشريعة وصرفها الى الميول والاهواء.. لقد اعتذر من اعتذر عن عائشة وطلحة والزبير ومعـاوية في خروجهم على الامام بانهم اجتهدوا وتأولوا ، وابطلنا نحن هذا الاعتذار ، ومع ذلك يختفي الكثير منا وراء مبدأ الاجتهاد والتأويل كلمـــا آثرو الهوى على مرضاة الله سبحانـه .

ولم يعرف عن الشيخ حسن المقمقاني انه استعمل في حياته الحيل الشرعية، كالذين يصالحون على الحقوق باقل من المبلغ الواجب ، ويأخـذون عشرة ممن عليه مئة او اكثر ، ويتأولون تأويلات يبرأ منهـا الدين ، ولا يعرفهـــا الا الابالسة والشياطين .. واي فرق بين ما يفعله بعض المعممين من هبة الحقوق والتسامح مع من هي عليه ، وبين ما يفعله رجـال الدين من بعض الطوائف من غفران الذنوب للمجرمين ؟!.

وكان يقول الشيخ حسن : ان هذه المصالحة محرمـة في الاسلام ، لانهـا تتنافى مع مصلحة تشريـع الخمس والزكاة ، وفيها تفويت لحق الفقراء ، واذا كان الفقيه وليا عن الفقير في قبض المال فلا ولايه له في العفو والابراء منه . . اما من تذرع بان في المصالحة استنقاذاً لبعض الحق ، وان في تركها تفويتـاً للجميع فرد عليه الشيخ حسن بان هذه المصالحة اغراء بالجهل ، حيث يعتقد من عليه الحق ببراءة ذمته ، فلا يؤدي ما تبقى عليه .

وبكلمة لقد ابتعد هذا الشيخ القديس عن الشبهات تماماً كما ابتعد عـــن الحرام البين ، وتورع عن كل اسلوب يخشى معه على دينه وآخرته ، من ذلك

ان بعض التجار كان بمده بشيء من المال ، وهو طالب ، فكان الشيخ اذا التقى بهذا المحسن يتجاهله ، ولا يسلم عليه ، كي لا يظن انه يتملقه ، ويتقرب اليه طمعاً في دنياه ، ولما علم المحسن ذلك من الشيخ عامله بالمثل ، كي لا يظن الشيخ انه يمن عليه باحسانه.. لقد ابتغى كل ممن اعطى واخذ اشرف المقاصد ، وانبل الغايات ، فابتعد عما يدنس هذه الغاية النبيلة ، والمقصد الشريف .. ولا اثر اليوم لهذا اللون من الاعطاء والاخذ .. ان الذين يدفعون قد اصبحوا اقل من القليل ، ومن دفع فلا بد ان يرتل له آيات الحمد والتمجيد.

وفي النهاية نحن لا نطلب من العالم ان يتحلى بجميع مزايا هذا الشيخ القديس ، لنمنحه الحب والاحترام ، ونكتفي منه ان لا يتخذ الدين وسيلة للارتزاق .

توفي الشيخ حسن سنة ١٣٢٣ هـ



علماء النجف

النجف لاتصنع المعجزات

ان النجف جامعة ، كغيرها من الجامعات ، وليست آلة تحول الرذائل الى فضائل ، كما يحول المصنع المواد الخام الى ادوات صالحة للاستعمال ، ولا هي سر يصنع المعجزات وخوارق العادات ، فيجعل من الجاهل عالماً ، ومن الجبان شجاعاً ، ومن الخائن مخلصاً بمجرد ان يدخلها ، وبدون اية وسيلة من الوسائل المعتادة ، تماماً كما هي الحال بالقياس الى السيد المسيح (ع) حين أبرأ الاكمة والابرص واحيا الموتى .. ان جامعة النجف لا تختلف في شيء عن اية جامعة — من هذه الوجهة — الا بروحها الدينية ، وايمانها الخالص .

اذن ، بأي مبرر نحمّل النجف وجامعة النجف تبعة معمم جاهل ، وشيخ متعصب ، وآخر باع دينه للشيطان ؟!. وهل جميع الذين تخرجوا من جامعات الغرب والشرق علماء مخلصون ، وابطال مفكرون ؟!..وقد سمعت اكثر من واحد ممن يحمل اعلى الشهادات الجامعية يتكلم بكلام يسخر من قائله الطلاب المبتدئون .. اما الذين علموا الناس اللصوصية والاغتيال ، والتجسس والاحتيال ، وكانوا السبب الاول للويلات والمشكلات في العالم كله فاكثرهم من خرجي الجامعات الكبرى واساتذتها في اروبا واميركا .

ان النجف تبلغ بالطالب المجد الى الاجتهاد ، ومعرفة الشريعة اصـــولا وفروعا من مصادرها ، وهذه المعرفة تهيئه وتمده بالطاقة الـكافية لتفهـــم الحياة والآراء والفلسفات قديمها وجديدها ، بل والحكم لهـــا او عليها ، على شريطه ان يستمر في قراءة الكتب المتنوعة ،والعديد من الصحف ، ويذاكر- ان امكن – بعد ان يترك النجف، اما اذا ترك فيصير بالامي اشبه ، وتذهب جهوده ايام دراسته سدى ، ولا يمر أمد ، حتى يصبح ذهنه جامدا متحجرا بعد نموه وانطلاقه ..

وهذا شأن جميع المتعلمين وحملة الشهادات ، حتى المتخصصين منهم ، سواءاً تخرجوا من النجف او غيرها.

من خرجت النجف

والآن تعال معي ايها القاريء ،لننظر الى تاريخ النجف نظرة علمية مجردة عن التعصب والتحيز : هل خرجت النجف ابطالا مفكرين ، واحرارا عالمين، او ان اقصى ما لديها ان تخرج فقهـاء يعرفون الطاهر والنجس ، والحـــلال والحرام ، وشروط الصوم والصلاة ؟..

ويجيبنا التاريخ بان النجف اول جامعة خرجت مفكرا عظيما ، عـارض الاحتكارات الاستعمارية ، وقضى عليها ، كما خرجت عظماء حاربوا الاستبداد والمستبدين ، ودعوا الى الحرية ، وقـــاتلوا المستعمرين ، وهزوا الكيان البريطاني من اساسه يوم كانت انكلترا الدولة الاولى في العالم كله ، وضعضعوا العرش العثماني ، وافزعوا القيصرية الروسية ، واخـافوا الملوك القاجـاريين ، ومن جهل هذه الحقيقة فقد جهل التاريخ المنصف الذي يعطي لكل ذي حق حقه . وفيما يلي نذكر – على سبيل المثال – افرادا من هؤلاء العظماء ، مـــع الارقام على انهم كانوا أئمة في الثورات التحررية ،كما كانوا أئمة في الفقة والشريعة

الاسلامية .

الميرزا حسن الشيرازي

في سنة ١٣٠٩ هـ منح شاه ايران ناصر الدين القاجاري امتيازا لشركة انكليزية بحصر التبغ ، وكان المرجع الديني الاول يومذاك السيد محمد حسن المشهور بالميرزا الشيرازي ، فادرك ان هذه الشركة اكبر خطر يهدد اقتصاد ايران ، وانها طريق لتحكم الاستعمار بمصير البلاد ، فلم يجد سبيلا للقضاء عليها الا بتحريم التدخين على الايرانيين ، وما شاع خبر التحريم ، حتى تركه اهل ايران ، وكسرت كل نارجيلة ، وكل آلة من آلات التدخين ، حتى نساء الشاه حطمن آلات التدخين في القصر بما فيها نارجيلة الشاه ، ولما علم الشاه بذلك لم يحرك ساكنا ، مع نسائه وخدمه ، واضطر الى فسخ الامتياز ، واستراحت البلاد من شرور الشركة .

وقيل: ان مدير الشركة سأل: كم يملك هذا السيد من الجيوش والاساطيل؟. فقيل له: لا شيء .فقال : وكم تبلغ ثروته من الملايين؟. فقيل له: لايملك شيئا . قال: ان هذا لا يمكن مقاومته ..

أجل، لو كان يملك الأموال والأساطيل لأمكن أن يقاوم بأساطيل أعظم، وبثروة اضخم ، ولكنه يملك القلوب التي لا حول ولا قوة معها للنار والدينار ..

وهكذا امد الله سبحانه هذا السيد بعونه ، وسدده بتوفيقه حين علم منه الاخلاص في النية ، والصدق في العمل. وحسبنا بهذا الرقم حجة على من قال: ان الدين منفصل عن السياسة ، وانه في حقيقته لا يتعدى حدود الجوامع والاديرة ، وان على رجاله ان يتجافوا عن كل ما يمت الى الحياة بصلة ، وقد رد جمال الدين الافغاني على هؤلاء بقوله: واذا لم نشتغل بالسياسة ، وهي عصب

الحياة ،فما هي ، اذن ، صلتنا بهذا العالم الحي ؟!.»

وقال السيد محسن الامين في الجزء ٢٣ من الاعيان :

« في سنة ١٢٨٧هـ زار ناصر الدين شاه العتبات المقدسة في العراق ، وكان الوالي على بغداد مدحت باشا الشهير ، فلما قصد الشاه كربلاء خـرج لاستقباله علماؤها الى المسيب ، فسلم عليهم ، وهو راكب .. ولما ورد النجف الاشرف خـــرج ايضاً لاستقباله علماؤها ، فسلم عليهم ، وهو راكب ايضاً ، ثم زاروه بعـد دخولهـا ، ولم يخرج السيد محمد حسن الشيرازي لاستقباله ، ولم يزره ، فارسل الى كل واحد مبلغ من المال ، فقبله ، وارسل الى السيد ، فـلم يقبل ، فارسل الشاه وزيره حسن خـان يعاتبه ، ويطلب منه زيارة الشاه ، فابى ، فاصر الوزير ، واصر السيد ، وبعد الالحاح تم الاتفاق على ان يذهب الشاه لزيارة الحضرة الشريفة العلوية في وقت معين ، ويذهب السيد اليها بهذا القصد وهناك يتم اللقاء ، وهكذا كان ، وزادت بذلك مـــنزلة السيد عند الشاه ، وعند كافة الناس ، وكان ذلك اول ما ظهر من مخايل كياسته ، وبعد نظره في الامور » .

واصبحت هذه الطريقة سنة متبعة عند كبار العلماء منذ السيد الشيرازي حتى اليوم ، فاذا جاء الى النجف ملك من ملوك المسلمين ، او من هو في منزلته احجموا عن استقباله وزيارته ، واذا دعت الضرورة الى الاجتماع التقوا بـــه في الحضرة المقدسة .

امتنع السيد عن زيارة الملك ، وتصلب في موقفه رغم الاغراء والالحاح اعزازاً للدين ، لا لنفسه ، بخاصة بعد ان استقبل الشاه اهل العلم ، وهـــو راكب ، واظهر من التصلف والتكبر عليهم ما اظهر .. لقد ترفع السيد عن الشاه ، ليرفع الدين واهله باعين الناس ، ويفهم الجميع بان عظمـــة الدين لا

يدانيها شيء ، لانها من عظمة الله سبحانه .

وقد كان للسيد جوانب اخرى لا تقل اهمية عن هذا الجانب ، فبنى مدرسة لاهل العلم ، وانشأ سوقاً في سامراء ، واقام جسراً على دجلة ، وعين المشاهرات السرية للعائلات المستورة التي يحسبها الجاهل اغنياء من التعفف ، واعان من افلس من التجار ، دون ان يعلم احد بذلك ، ورتب المرتبات للطلاب والمدرسين حسب مراتبهم ومنازلهم العلمية ، وكان لا يخيب قاصداً كائناً من كان ، عالما او جاهلا ، شيعياً او غير شيعي، فكان الفقراء والمعوزون من طلاب العلم وغيرهم يستدينون على عطاياه .

وكانت تجبى اليه الاموال من اقصى الصين ، وما وراء النهر ، فما دون ، ومن كل بلد فيه شيعي ، فينفقها بكاملها في وجوه الخير والبر ، ولا ينفق منها على نفسه وعياله الا بمقدار الضرورة .. فلقد كان زاهدا متواضعا في لباسه وطعامه ، وجميع مظاهره ، ومات ولم يترك لاولاده عقارا ولا درهما .

ومن خصائصه التي امتاز بها عن المراجع انه كان يسأل ، ويتعرف على العلماء والطلاب في اقاصي البلاد ، فما من عالم او طالب في مدينة او قرية من بلاد الشيعة الا ويتفقد احواله ، وعرفها، حتى كأنه معه ، وكان يساندهم ويعينهم ماديا وادبيا ، بخاصة الذين يفيدون وينفعون ، واذا سمع عن احدهم ما يكره تجاهله ، حتى كأنه غير موجود .

أي اتزان ورجحان في هذا العقل ؟.. وأي عطف وحنان في هذه النفس الزكية ؟.. وأي نبل وسمو في هذا الضمير الحي ؟.. وأي ايمان واخلاص في هذا القلب الطاهر ؟.. وليس من شك ان قلبا كهذا يجلب اليه جميع القلوب ، فتنقاد لصاحبه انقيادا لا تملك معه شيئا ، ولا ترى لنفسها امرا ولا نهيا .

إن العلاقات والصلات بين الناس والمرجع الاعلى للدين تماما كالصلات

بينهم وبين المعصوم ، لانه النائب عنه في مهماته - كلها او جلها على اختلاف بين الفقهاء - وبديهة ان صلة المعصوم بالناس انما هي صلة الاب الرؤف بابنائه الكبار والصغار ، الابرار والفجار ، على السواء ، ومحال ان تكون للعالم الاهلية لهذا التمثيل اذا لم يكن له عقل كعقل السيد الشيرازي ، وقلب كقلبه ، محال ان يكون سيدا للجميع اذا لم يكن ابا للجميع .. واذا كان الانسان لا يبلغ درجة الاجتهاد الا بعد ان يتقن القواعد والاصول المقررة فان المجتهد لا ينوب عن المعصوم الا اذا ملك القلوب ، ولا يملكها الا من كان باوصاف السيد الشيرازي الذي اوجزها السيد الامين في كتاب الاعيان بقوله :

« كان ثاقب الفكر ، راجح العقل ، بعيد النظر ، مصيب الرأي ، حسن التدبير ، واسع الصدر ، منير الخلق ، طليق الوجه ، صادق النظر ، اصيل الرأي ، صائب الفراسة ، قوي الحفظ ، على جانب عظيم من كرم الخلق ، يوقر الكبير ، ويحنو على الصغير ، ويرفق بالضعيف والفقير ، اعجوبة في احاطته ، وسعة مادته ، وجودة قريحته ، آية في الذكاء ودقة النظر والغور وكان بالاضافة الى ذلك اديبا يحب الشعر وانشاده ويجيز عليه ، فقصده الشعراء عربا وعجما ، وراجت بضاعة الادب في ايامه » .

وبالتالي ، لو كان السيد الشيرازي عند الاجانب لوضعوا في افعاله وآرائه مئات المجلدات ، ولعرضوا حياته على المسرح مرات ومرات ، وملأوا بها الصحف والاذاعات .. ولكنه عند الشيعة .. واتمنى لو توجه النجف طلابها ومن يتخرج منها الى الاهتمام برجالنا من امثال هذا السيد الذين تفاخر بهم الامم مدى الاجيال [1] ولا ارى احدا اولى بذلك من السادة رجال منتدى

---

(١) الف العالم العامل الذي انقطع الى الله لا يشغله عنه شاغل الاغابزرك الطهراني كتابا مستقلا في ترجمة السيد الشيرازي . ووضع تلميذ السيد حسنعلي رسالة في موقف استاذه من شركة التبغ الانكليزية .

النشر ، ولا شيء ايسر عليهم من ان يقيموا في كل شهر ، او كل سنة على الاقل – احتفالا يتكلم فيه المحاضرون عن تاريخ النجف ، وينشرون رايتها ويتحدثون عن عظمائها ، افكارهم ومبادئهم وآثارهم .

وفي النهاية لقد ارسى السيد الشيرازي العظيم المبادىء الاساسية للزعامة الدينية . فعلى كل مرجع من مراجع الدين ان يتخذ من سيرته دستورا لجميع اقواله وافعاله .

الشيخ كاظم الخراساني

وفي سنة ١٣٢٤ هـ قامت جماعة من علماء طهران بحركة تحررية تهدف الى تحقق العدالة والمساواة والحد من سلطة الشاه بايجاد مجلس يتقيد الحاكم بقرراته ، فدعمت النجف هذه الحركة المباركة وساندتها بقياده الشيخ كاظم الخراساني صاحب « كفاية الاصول » الشهيرة ، وما ان تبنت النجف هذه الفكرة ، حتى انعكست الآية .. فبعد ان تولدت في طهران اصبحت طهران وغيرها صدى للنجف التي هزت عرش الشاه واودت به .. واصبح الشيخ الخراساني محوراً يدور الجميع من حوله ، وكان – طبيعيا – ان يتحالف الحكام العثمانيون مع الحكام الايرانيين ضد هذه الحركه ، ويستعملوا شتى الاساليب لمقاومتها والقضاء عليها ، خشية ان تقضي عليهم . . وطار صيت النجف في اقطار العالم ، وتحدثت عنها الصحف العالمية في الشرق والغرب ، وحسب لها الانكليز والروس الف حساب وحساب ...

قال صاحب « شعراء الغري » في ج ١٠ ص ٨٩ طبعة ١٩٥٦ نقلاً عن مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني الذي رافق هذه الحركة ، وساهم فيها مساهمة فعالة :

« اصبحت النجف في ذلك العهد مركزاً سياسياً مهماً ، وشبحاً مخيفاً بين

عواصم الامم الاسلامية ، مما دعا ان يستنجد بها احرار تركيا عندما احسوا بان السلطان عبد الحميد سيفتك بهم ويغتالهم ، فطلبوا من احرار النجف وزعيمهم الامام الخراساني ان يبرقوا الى عبد الحميد برقية ينصحونه فيها ، ويؤنبونه ، واجابة الى تدعيم الفكرة بادر ابو الاحرار الخراساني ببرقية مطولة ملأت صحيفة كاملة ، وفيها انذارات وتهديدات ، ونصائح للرضوخ الى فكرة الاحرار » .

وقال السيد الامين في الاعيان ج ٤٣ ص ٩٢ طبعة ١٩٥٨ :

« توفي الشيخ كاظم الخراساني فجر الثلاثاء فجأة سنة ١٣٢٩ هـ في مشهد امير المؤمنين (ع) ودفن فيه ، وكان ذلك في وقت احتلال الروس بلاد ايران، فتهيأ مع جماعة العلماء للخروج ، واعلان الجهاد ، ففاجأه الحمام »

وهكذا كانت النجف في عهد الشيرازي وتلميذه الخراساني تودي بعروش الجبابرة ، وتخيف القيصرية الروسية . والامبراطورية الانكليزية ، ويستنجد بها ، ويلجأ اليها احرار البلاد الاسلامية ، ويخرج عظماؤها وعلماؤها الى ساحة الجهاد مصممين على الاستشهاد من اجل الانسان وحرية الانسان ، ويعترف لها العالم بالسبق الى الثورات التحررية .

وغريبة الغرائب ان يكون اجهل الناس بهذه الحقيقة هم الشيعة انفسهم ، والاغرب ان ما يصدر عن النجف من نشرات لا يشعر من قريب او بعيد بتاريخها المجيد.. بل ان في بعض المؤلفات الحديثة من السخف والهراء ما يظهر النجف باقبح الصور وابشعها . . ولا اعرف احداً اساء الى النجف كمن تطفل ويتطفل على التأليف والتصنيف .. واذا عرف القريب ان هذا متطفل لا يمثل النجف فان البعيد يجهل هذه الحقيقة ، او يتجاهلها لغاية التدليس والتشهير ..

السيد محمد سعيد الحبوبي

كان علماء النجف – قبل ان تقع الحرب العالمية الاولى – يفكرون في وضع الخطط ، لاستقلال البلاد ، ويترقبون الفرص لتنفيذها ، والتحرر من العثمانيين ، وحين اعلن الحلفاء الحرب على الاتراك حسب العلماء في بدء الامر ان فرصة الخلاص والتحرر قد سنحت .. ولكن سرعان ما فوجئوا باحتلال الانكليز لاطراف العراق ، فلم يجدوا بدأ من التعاون مع الدولة العثمانية ، والعمل يداً واحدة في جبهة واحدة ضد الحلفاء ، والا انتقلوا من سيء الى اسوأ ..

لذا اجتمع علماء النجف وكربلاء ، واعلنوا كلمة الجهاد مهما كان الثمن ، وسارت الجموع بقيادة العلماء لحفظ الثغور ، وتوجه كل فريق الى ثغر ، فكانت بلدة « الشعيبة » من نصيب المجاهد الاكبر السيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان اكثر العلماء حماساً وصبراً ، كما ضرب الرقم القياسي في البذل والتضحية والعفة والنزاهة :

« كان ينفق من ماله الخاص على الجيوش الزاحفه معه لحرب الانكليز ، وقدمت له الحكومة العثمانية خمسة آلاف ليرة ذهب مساعدةله على مواصلة الجهاد ، فأبى ، وقال : ما دمت املك المال فلا حاجة لي به ، واذا ما نفد فشأني شأن سائر الناس آكل مما يأكلون ، واشرب مما يشربون » [1]

وتوجه الشيخ مهدي الخالصي الى جبهة الحويزة ، وشيخ الشريعة ، والسيد علي الداماد ، والسيد ابو القاسم الكاشاني ، والسيد مهدي آل حيدر وغيرهم الى «القرنة» ولشيخ الشريعة والسيد الداماد فيها مواقف مشهورة ومشكوره [2]

(١) شعراء الغري ج ٩ ص ١٥٠ طبعة ١٩٥٦ .

(٢) ماضي النجف وحاضرها للشيخ جعفر محبوبة ص ٢٤٦ طبعة العرفان . صيدا .

ولكن الاتراك خذلوا السيد الحبوبي في « الشعيبة » حيث اخلوا مراكزهم للانكليز ، وتفرق الجيش ايدي سبا ، فأثرت هذه الصدمة في نفسه الكبيرة، وتوفي على اثرها سنة ١٣٣٣ ﻫ .

ذهب السيد الى ما اعده الله للمجاهدين والصديقين ، وعاد رفاقه الى النجف ، واحتل الانكليز العراق ، ولكن هل سكت علماء النجف ، واستسلموا للمحتل الغاصب ؟ . كلا .. فلقد استؤنفت الثورة على نطاق اوسع ، وحدث الانفجار الكبير بفتوى الميرزا محمد تقي الشيرازي .

الشيخ محمد تقي الشيرازي

هذا وجه آخر من وجوه النجف غير مجرى التاريخ بكلمة واحدة ، هذا نصها بالحرف :

« مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والامن ، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبهم » .

حددت هذه الكلمة – على ايجازها – حقيقة الجهاد ، واسسه التي يرتكز عليها ، وشروطه التي لا غنى عنها ، ولو ان هيئة مؤلفة من كبار المتخصصين في التشريع حاولت ان تزيد او تنقص حرفاً منها دون ان يختلط المعنى ويلتبس بغيره لما استطاعت ، اما سر التحفظ والدقة البالغة في هذا الحد فلا يكمن بالعلم وحده ، بل به وبالحيطة والحذر من سفك دم بغير حق ، والاعتداء على عرض او مال ، وترويع بريء آمن .

اوجب الشيخ الشيرازي على المحق ان يطالب بحقه ، لان السكوت عن الظالم اغراء له بالظلم ، ثم منع من استعمال القوة والعنف ان نفع السلم والرفق ، اما اذا تمرد الغاصب وانحصر سبيل الحصول على الحق بالقوة جاز استعمالها ، على أن لا تؤدي إلى الفساد والفوضى، لأن الخطيئة لا تقاوم بمثلها . . لقد استوحى الشيخ الشيرازي فتواه هذه من تعاليم الرسول الاعظم (ص) صاحب الشريعة السهلة السمحة ، وبعده بقرون جاء ابطال حقوق الانسان في الامم المتحدة ، وقالوا : يحق للشعوب المظلومة ان تدفع الظالم بالمقاومة . .

ومهما يكن ، فما وصلت كلمة الشيخ الشيرازي الى المسامع ، حتى انفجر البركان ، وانقض كل بلد في الفرات على حاكمه ، وحشدت الانكليزجيوشها واساطيلها ، فقتل العراقيون منهم الالوف ، واغرقوا الباخرة « فاير فلاي » بعد ان امطروها بنيران المدفع الثقيل الذي غنموه من الانكليز في وقعة « الرستمية » ودامت الثورة قرابة ستة اشهر من اول شوال ١٣٣٨ هـ الى شهر ربيع الاول ١٣٣٩ ، واخيراً وضعت قبائل بني(حجيم) الشيعية شروط الصلح مع الانكليز ، وفي رأسها « ان تكون للعراق حكومة عربية مستقلة » . والجدير بالذكر ان قبائل حجيم اول من اعلن الثورة واطلق النار على الانكليز ، وآخر من القى السلاح .

وتوفي الشيخ الشيرازي اثناء الثورة ، وخلفه شيخ الشريعة ، فوقف موقفه ، وسار بسيرته ، وابرق الحاكم الانكليزي لهذا الشيخ اكثر من مرة يرجوه ايقاف الثورة ، وتهدئة الحال ، ثم كتب له كتاباً مطولا في ذلك ، فاجابه الشيخ بكتاب جاء فيه :

« ان تدارك الأمر يكون باعطاء العراقيين حقوقهم التي طالبوكم بها مطالبة سليمه فابيتم الا اغتصابها ، وجعلتم اصابعكم في آذانكم . . واستعملتم الشدة والغلظة ، فنفيتم وقتلتم وسجنتم . . وقلتم في كتابكم :

ان الحكومة الانكليزية تعتمد دائماً على الاركان الثلاثة : الرحمة والعـــدل والتسامح الديني ..

اما الرحمة فهي مقابلتكم العراقيين بالجيوش الجرارة وقتـــل الرؤساء والعلماء .. واما العدل فبالقتل والاعدام لغير جرم ، وبـدون محاكمـة .. واما التسامح الديني فبرمي الطائرات والسيارات المصفحة المساجد ، وقتـل المتعبدين والنساء والاطفال ، وتشكيل الادارة العرفية لمعـاقبـة من يتصدى لعقد مجلس لقراءة مناقب النبي في المساجد ، او مأتم الامام الحسين . . ثم تزعمون انكم تجازون المفسدين .. فكأن الفساد عندكم هو المطالبة بالحق..

ثم ختم الشيخ رسالته بقوله : انتم السبب ، وانتم فتقتم الفتق ، وعليكم وحدكم التبعة .. ورأينا في الامر ان يمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً من كل شائبة عارياً عن كل قيد » [1]

وبعد انتهاء الثورة ، واستقلال العراق، واعلان الملكية قاوم علماء النجف الوضع السياسي الجـــائر ، فنفي الميرزا حسين النائيني ، والسيد ابو الحسن الاصفهاني ، والشيخ مهدي الخالصي ، وهذا الشيخ المهـــدي المخلص ثار على الانكليز حين حاولت احتلال العراق ، وثار عليها بعد الاحتلال ، وثار عليها بعد اعلان الملكية [2] ولو سكت هذا العظيم ، ولم يكن مـع الانكليز ولا عليها لبذلت له ما يشاء وفوق ما يشاء ، ولكنه ابى الا العمل بشعار الحسين

---

(١) ماضي النجف وحاضرها لمحبوبة ج ١ ص ٢٦٩ طبعة ١٣٥٣ هـ

(٢) ارادت الانكليز ان تعين حكومة من العلماء ، وتضفي عليهـا الصبغة الشرعية بتزوير ارادة الشعب ، فقاوم هذه الفكرة الخالصي والنائيني والاصفهاني ، فرجهت اليهـم الانكليز تهمة التدخل لمنع الانتخابات ، ونفتهم من البلاد . . انظر اعيـان الشيعة ج ٤٨ ص ٦٣ وج ٥٣ ص ٤٩ .

الشهيد « لا ارى الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الا ندماً » . . وطالما تمنيت وتمنى معي كل محب للخير واهله لو سمع عن الخلف ما سمع عن السلف . .

سقت هذه الامثلة – وهي غيض من فيض ، ونقطة من بحر للتدليل على ان النجف مصدر للحرية والعدالة وللكفاح من اجل الانسان وكرامة الانسان ، كما هي مصدر العلم والدين ، ولا تكون النجف الا كذلك ما دامت بابا لمدينة علم الرسول ، وجامعة لتعاليم آله الكرام .

ان الشيعة يعظمون النجف ، ويقدسونها ، لان فيها ضريح الامام (ع) ، ولكن معظمهم يجهلون انها تصنع عظماء كالشيرازيين والحبوبي والخراساني وغيرهم ، اما تبعة هذا الجهل فتقع على رجالات النجف وحدهم .

وكأني بالقاريء يعترض ، ويقول : انك تطلق اللفظ جزافاً ، فتعبر عن البعض بالكل ، وعن الفرد بالنوع .. فاذا خرّجت النجف امثال من ذكرت فقد خرج منها افراد تعاونوا مع الاستعمار ، وتحمسوا للاقطاع ، وكانوا أداة في ايدي المستعمرين والاقطاعيين ، وهؤلاء معروفون باسمائهم وسيمائهم في لبنان والعراق وايران .

الجواب

ان نسبة هؤلاء الى النجف ظلم وبهتان ، او غفلة وجهل ، ولا شيء ادل على ذلك من ان النجف تحتقرهم ، وتشهر بهم ، وتعلن موقفهم على الملأ . . وانها تعظم العلماء المتقين ،بل وتعتبرهم اولى بدماء المؤمنين واموالهم واطفالهم من انفسهم .. وما قدمناه من آثار فتوى الشيرازي الاول ، والشيرازي الثاني اصدق دليل .. وأي ذنب للنجف وغيرها من الجامعات اذا دخلها وخرجها منها مرتزق محتال ؟!. وهل يطلب منها اكثر من البراءة منه ، وعدم الثقة به ؟!.. ولنفترض ان والدك او ولدك ضل عن طريق الرشاد،فماذا تصنع غير البراءة منه : « فلما تبين انه عدو لله تبرأ منه – ١١٤ التوبة »

ومن الطريف ان بعض المعممين يسيرون في ركاب الاستعمار ، ثم يزعمون انهم يخدمون بذلك الدين ، وينفعون المساكين .. ويذكرني هذا الزعم باهل قرية « العذرى » التي قتل ودفن فيها حجر بن عدي واصحابه ، حيث يقولون : « سيدنا » معاوية قتل سيدنا حجراً .. فيجمعون بين الحق والباطل في آن .

الميرزا محمد تقي النوري

قال صاحب الاعيان في ج ٤٤ ص ١٣٧ طبعة ١٩٥٩ : ان الميرزا محمد تقي النوري والد صاحب مستدركات الوسائل كان من العلماء الاكفاء ، وكان عنده من الطلاب ما يزيد على ثلاثمئة طالب ، وقد كفاهم امر معاشهم ، وقدمهم على عياله ، وكان حسن المحاضرة ، طلق اللسان ، حاضر الجواب زاهد في الدنيا وملذاتها ، داعياً الى الله بافعاله واقواله . . وكان شديداً على الفساق والظلمة عذاباً عليهم لا يرى لهم مالا الا اخذه بقدر الامكان ، وفرقه على الفقراء والمساكين » .

ان مصادرة املاك المجرمين لون جديد لمقاومة الجرائم عند الفقهاء ، لان الظالم ان اعتدَ على مال اخذ منه مع بقاء العين ، والا اخذ بدله من المثل والقيمة ..وان اعتدَ بالضرب والقتل ، وما اشبه اقتص منه بالمثل . . اما الفاسق فيحد بالعقوبة المنصوص عليها شرعا ، وان فقد النص عزره الحاكم بما يرى .. اما مصادرة الاموال على الظلم والفسق فشيء لا يعرفه العلماء ، حتى على القول بعموم الولاية ، ونيابة الحاكم عن الامام في جميع شئونه .. لان مصادرة الامام لاموال الظلمة والفسقة لم تثبت .

ومهما يكن ، فان هذا اجتهاد خاص للشيخ النوري يعذر فيه ، وان دل على شيء فانما يدل على كرهه العميق للمظالم والمفاسد [1] .. واذا لم تكن

---

(١) قد يعتذر عنه بأنه كان يأخذ من اموالهم الصدقات الواجبة ..

عاطفة الكره او الحب دليلا شرعياً فانها كثيرا ما تملي الدليل .. فلقد راينـا افراداً يقولون ويفعلون بدافع العاطفة ، وهم يحسبون اقوالهم وافعالهم من املاء العلم والدين .. وحبذا لو كانت ادلة جميع الشيوخ – في هذا البـاب – من نوع عاطفة الكره والثورة على الظلم ، لا من نوع تبريره او مهادنته .

السيد محمد العيناثي

منذ ثلاثة قرون نعى هذا العالم على فريق من قومه اهمالهم روح الاسلام وجوهره ، وافهمهم انه علم واخلاق تسعد بهما الانسانية جمعاء ، وليس مجرد طقوس وعادات ، والف لهذه الغاية كتابين : « الاثنـا عشريـة في المواعظ العددية » وضمنه تعاليم اهل البيت ، ومبـادئهم التي وضعهـا الاسلام اساساً لخير الانسان في الدارين . و « آداب النفس » الذي اقام فيـه الادلة العقلية والشرعية على ان الانسان خلق للعلم النافع ، والعمل الخالد ، ومما قاله في الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٩٨ :

« من الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسباً لها مثل النياحة والقصص.. لا يعرفون من التشيع الا البكاء وحب المتدينين بالتشيع . . وجعلوا شعارهم لزوم المشاهـد ، وزيارة القبـور ، كالنساء الثواكل ، يبكون على فقدان اجسامنا ، وهم بالبكاء على انفسهم اولى » .

وهكذا نرى في علمـاء الشيعة مـن يمتشق الحسام ، ويجيش الجيوش ، ويستشهد في قلب المعركة اذا جد الجد ، ومن يحارب الطغيان والاحتكار ، ومن يدعو الى الحياة الديمقراطية والتحرر من حكم الفرد ، ومـن يفكر تفكير المصلح الذي تشرب روح الدين وجوهره ومن يصادر اموال الظلمة ، ليحد من ظلمهم وطغيانهم .

مستمسك العروة الوثقى[1]

النجف تخرج الكبار

مضى على جامعة النجف الاشرف ما يقرب من الف عام ، ومنذ قيامها حتى اليوم ، وهي تخرج المراجع وكبار العلماء في الفلسفة ، وشتى العلوم الاسلامية ، ومايتصل بها ولكن الكثير من هؤلاء الاقطاب فارقوا الحياة دون ان نعرف عنهم شيئاً ، بل دون ان نسمع باسمائهم ، حيث لم يتركوا اثراً يعرف الناس بهم ، او تركوه ولم يصل الى احد .

ومن المؤسف ان لا يكون لجامعة النجف سجلات تحصي الداخل والخارج وتشير الى مدة دراسته ونوع درجته من العلم ، ومنهم من رافق ذكره الاجيال ، ودار اسمه على لسان الاساتذة والتلامذة في جميع الادوار لانه ترك آثاراً انتشرت واشتهرت ، وكانت منهلا عذبا لكل راغب وطالب ، وبعض هذه الآثار نال اعجاب الاجانب على اختلاف عقائدهم وميولهم ، ولن اعدد هنا اسماء المؤلفين ممن تخرج من جامعة النجف ، وانما اقتصر على ذكر من اشتهر منهم منذ مطلع هذا القرن وكان لمؤلفاتهم الأثر البالغ في مجالس المذاكرة وحلقات الدرس :

---

(١) نشرت في العرفان نيسان ١٩٥٧

الشيخ كاظم الخراساني صاحب كتاب كفاية الاصول والسيد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى وملحقاتها وحاشية المكاسب ، والآغا رضا صاحب مصباح الفقيه ، والميرزا حسين النائيني صاحب تقريرات الخوئي والخراساني والخونساري ، والسيد محسن الحكيم مرجع الامامية في ايامنا هذه ، امد الله في حياته .

الكفاية والعروة

نال كل من كتاب الكفاية في الاصول ، وكتاب العروة في الفقه حظاً وافراً في الاوساط العلمية واعيد طبعه مرات عديدة ، فالاول من امهات كتب التدريس اما الثاني فهو عظيم بذاته من جهة ، ومن جهة اعتبر رسالة عملية في اكثر الادوار ، حيث علق عليه المجتهدون وامروا اتباعهم بالعمل به مع التعليق ومن هنا اشتهر الشيخ الخراساني في الاصول ، والسيد اليزدي في الفقه وان كان في هذا التعبير تسامح ، لان كل فقيه اصولي ولا عكس ، فقد يكون الانسان اصوليا ولا يكون فقيها (بالفعل) اذا لم يحط بايات واحاديث الاحكام واقوال الفقهاء ، وان كانت مؤهلات الفقاهة متوفرة له ولا يمكن بحال ان يكون فقيهاً وغير اصولي ، لأن معرفة الفقه تتوقف على معرفة الاصول ، فالنسبة بين الفقه والاصول كالنسبة بين القاضي والمفتي عموم وخصوص مطلق فكل قاض مفتي ولا عكس . وقد شرح سيدنا الحكيم الكتابين الشهيرين : كفاية الشيخ وعروة السيد ، وألف في العلمين الاصول والفقه ، حقق ودقق في كل قاعدة يمكن ان تقع في طريق الاستنباط ، او ينتهي اليها في مقام العمل من الوجهة الشرعية ، كما احاط علماً وخبرة بالآيات والاحاديث وآراء الفقهاء القدامى والمحدثين .

حقائق الاصول

شرح السيد الكفاية في كتاب اسماه (حقائق الاصول) يبلغ مع المتن

أكثر من الف صفحة بقطع الوسط وتمتاز الكفاية عن غيرها من كتب الاصول بالجمع والتحقيق الاختصار وبالغموض والتعقيد ولم يعرف التاريخ الى اليوم كتاباً في الاصول اشكل منها عبارة واكثر تعقيداً ولكن السيد حل الكثير من طلاسمها واوضح مطالبها حتى اصبحت في متناول كل مريد وزاد من قيمة هذا الشرح اليتيم ما سجله السيد من ملاحظاته وآرائه الخاصة التي تكونت ونمت وقويت مع الزمن . وجاءت نتيجة لفكره العميق ، وجلده النادر الذي عرف به منذ اليوم لطلبة العلم . اكتفي بهذه اللمحة العابرة عن كتاب الحقائق لأن غرضي الاول هو الاشارة الى كتاب المستمسك .

المستمسك

تحتوي العروة الوثقى على ابواب العبادات وبعض ابواب المعاملات وتمتاز بجمع الفروع وكثرة المسائل وبالوضوح وسهولة البيان والتعبير لهذا لم يكثر سيدنا من لفظة (أي) وكلمة (يعني) كما فعل في كتاب الحقائق واختصر على ذكر الدليل والمستند لما ذهب اليه مما يتفق مع قول الماتن او يخالفه وزاد على ما في العروة صوراً تتناسب مع المقام وتمثل ادق ما وصلت اليه يقظة الفقيه القدير شرح العروة بكتاب ضخم اسماه (مستمسك العروة الوثقى) واخرجت منه المطابع حتى الآن ثمانية اجزاء [1] بلغ مجموع صفحاتها ٣٨٦٢ صفحة بقطع الوسط ، وقد طبعت – باستثناء الجزء الاول - طباعة حديثة على ورق جيد ورتبت ترتيباً حسناً مع فهرس مفصل ، وللمرة الاولى في تاريخ الفقه الجعفري تخرج المطابع الحديثة مثل هذا السفر الخالد بحلة قشيبة .

ومن يتتبع المستمسك يقع في حيرة ، ولا يدري : أهو مطول ام مختصر والسر انه لا يوجد فيه حشواً وتطويلا بغير طائل وفي نفس الوقت يجده متخما بالعلوم والاحصاءات ، زاخراً بالتحقيق والتدقيق . أما هذه المجلدات

---

(١) صدر الجزء التاسع

الضخمة فهي حقائق لا شبهات ، وقائع لا خيالات ، هي لباب لا قشور ، وجواهر لا اعراض ، ومن هنا جاء الكتاب كبيراً في معانيه وتحليلاته ، صغيراً في الفاظه وكلماته .

وبهذه المناسبة انقل للقاريء جواباً للسيد عن سؤال رفعته اليه ، اجاب عنه بكلمة واحدة ولكنها تحوي الفرع والاصل واحدة لا غير هي الفتوى وهي الدليل الذي لا شك معه ولا تردد .

اقيمت عندي دعوى نفقة تفرع عنها الواقعة التالية :

رجل غاب عن زوجته مدة يسوغ بعدها ان يطلق زوجته على كل حال فوكل بطلاقها آخر يقيم في البلد الذي فيه الزوجة . واوقع الوكيل الصيغه امام شاهدي عدل ثم تبين ان المطلقة كانت في الحيض حين الطلاق فهل يكون الطلاق صحيحاً لان الزوج غائب او فاسداً لأن الوكيل حاضر ؟

ارجأت الدعوى ورجعت الى المصادر ابحث وانقب فلم اعثر على نص خاص او قول محرر ولكن شعرت في نفسي الميل الى صحة الطلاق لامرين : الاول ان العرف يسند الطلاق حقيقة الى الاصيل لا الى الوكيل والاصيل غائب كما هو الفرض .

الثاني حديث اسماعيل الجعفري وغيره عن الامام (ع) قال :

« خمس يطلقهن الرجل على كل حال : الحامل والتي لم يدخل بها ، والغائب عنها زوجها . والتي لم تحض . والتي يئست من المحيض »

إذن زوجة الغائب تطلق على كل حال حائضاً كانت او غير حائض . اوقع الزوج الطلاق بنفسه او وكل بوقوعه . وعلى الرغم من اقتناعي بذلك احجمت عن الحكم بالصحة تثبتاً فيما يعود الى الفروج . وذاكرت عدداً من

اخواني العلماء في عاملة مجتمعين ومنفردين . فاتفقت كلمتهم على فساد الطلاق متذرعين بأن الوكيل كالاصيل . وانه يمكنه الاطلاع على حال المطلقة غير ان ميلي الى الصحة لم يتزلزل اقتناعاً بما قدمت . ومع ذلــك لم اقدم . لأن الواقعة من الفروج . فرفعت السؤال الى السيد وجاء الجواب « ان فــوض الطلاق الى الوكيل فبحكم الحاضر » وما ان وقع نظري على كلمة فوض حتى انتقلت الى الدليل القاطع . وفسرت « فوض » كما افهمها هنا بأن الطلاق ينسب حقيقة الى من هو في يده واوقعه بارادته ومــن البديهي ان السلطة والارادة الى الزوج خاصة فان احتفظ بها لنفسه ولم يفوضها الى الوكيل ينسب الطلاق حقيقة إلى الزوج دون غيره ويعطى حكم طلاق الغائب وان فوضه إلى الوكيل وعلقه على ارادته وقال له : ان شئت فعلت وان شئت تركت ينسب الطلاق الى الوكيل بنحو الحقيقة لانه يدور مع الارادة وجوداً وعدماً. وعليه يعطى حكم الحاضر . وكفى بهـذا الايجـاز والاعجاز شاهـداً عـلى علـم الحكيم الخبير .

السيد مع الدليل

قال العلامة المجلسي « ان الفقهاء لما رجعوا الى الفروع كأنهم نسوا ما اسسوه في الاصول » واذا تتبعت الكثير من كتب الفقه تجد هذه الظاهرة بارزة في خلايا السطور من ذلك – على سبيل التمثيل – ان منهم من قال في مباحث الاصول بأن الوصف لا مفهوم له وان الشهرة في الفتوى ليست بحجة وان الاجماع اذا عرف سببه لا يعتمد عليه وان الاصل محكوم بالدليل وان الاستبعادات والاستحسانات لا تصلح دليلا للأحكام الشرعية اسسوا – اي البعض – هذا في الاصول ولما وصلوا الى الفقه استبعدوا واستحسنوا وقالوا بمفهوم الوصف او توقفوا واعتبروا الشهرة في الفتوى والاجماع مع العلم بالسبب او احتاطوا وعارضوا الدليل بالاصل واذا دل هذا على التقوى والورع

فتستشم منه رائحة التبعية والتقليد . اقول هذا واستغفر الله .

اما سيدنا الحكيم فقد انسجم قوله في الفقه مع قوله في الاصول هو مع الدليل والدليل معه لا يفترقان بحال مع الكتاب والسنة ، او ما ينتهي إليهما من اجماع او عرف او عقل فما دام تفسير الآية والحديث يتسع للحل فلا مجال للتحسين والاستبعاد ، ولا للشهرة والاجماع المعلوم سنداً . وبهذا الاسلوب وحده كان فقه المستمسك فقهاً إمامياً من صميم الاسلام لا اثر فيه لقياس باطل .واصل لا يمت الى الدين بسبب ، واليك بعض الامثلة :

ذهب المشهور الى ان اعراض المالك عما يملك يجعله كالمباح بالاصل يجوز تملكه لكل انسان . وقال السيد ان النصوص لا تدل على ان الاعراض سبب لخروج المال عن ملك مالكه ، وصيرورته كالمباح بالاصل ، وربما يستفاد منها ، ان المال المملوك اذا صار بحال يؤدي الى ضياعه وتلفه ، فاستنقذه شخص آخر من الضياع والتلف كان ملكاً له ، نظير من احيا ارضاً مواتاً فهي له ، اذن النص هو العمدة ، وليست الفتوى [1] .

وقال الفقهاء : اذا اشترى انسان متاعاً من الغاصب وهو يعلم بالغصب ، ثم جاء المالك وانتزعه من المشتري فلا يحق للمشتري ان يرجع على البائع بما دفعه من الثمن مع تلفه في يد الغاصب ، وقيل لا يرجع بحال ، سواء أكان الثمن باقياً أم تالفاً ، لأنه سلطه عليه بلا عوض ، وقال السيد يرجع المشتري على الغاصب بمادفعه له في جميع الاحوال ، لأن مقتضى القواعد الأولية الضمان باليد كما هو حكم المقبوض بالعقد الفاسد اما الاجماع هنا فليس بحجة لأنه معلوم السند [1] .

---

(١) أنظر المستمسك ج٨ ص١٤٨ وما بعدها

(٢) أنظر نهج الفقاهة ص٢٦٨

قال السيد : اذا كان لانسان حق من دين او عين على آخر ، واخذه منه بواسطة من ليس أهلاً للقضاء مع فرض عدم انحصار الحصول على الحق بهذه السبيل ، قال : « يحرم على صاحب المال التصرف في ماله ، كما يحرم التصرف في المغصوب لانه والحالة هذه من قبيل التحريم بالعنوان الثانوي واستبعاد ذلك لا يجدي في رفع اليد عن ظاهر الدليل » (١) ومحل الشاهد أن الاستبعاد لا يتأثر مع الدليل .

وقال الفقهاء : ما يؤخذ من المسلم من اللحم والجلد فهو ميتة اذا علم انه اخذه من الكافر . وقال السيد هو مذكى حتى تعلم انه ميتة ، لإطلاق الأدلة بجواز الاخذ من يد المسلم وارض الاسلام (٢) .

إلى غير ذلك من الأمثلة التي يجدها المتتبع، وهي شاهد قاطع على ان السيد يعتمد أولا وقبل كل شيء على الكتاب ، وانه يحملهما من المعاني كل ما يمكن ان يتحمله اللفظ ويدل عليه ، فإن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة او اجماع اعتمد على العرف أي بناء العقلاء – وان فقد العرف فعلى الاصل فالاصل محكوم بالعرف والعرف محكوم بالنص والاجماع ، فكل ما تعورف بين الناس فهو حجة متبعة حتى يرد النهي عنه ، وهذا معنى قول السيد في صفحة ٢١ من الجزء الاول « فهذا البناء محكم مهما تحقق في مورد من الموارد، والعمل عليه متعين الا مع ثبوت الردع عنه » .

الاجتهاد تفريع وتطبيق

قال الفقهاء : ان المجتهد من حاز ملكة الاستنباط ، ويعنون بهذا ان يكون قادراً على تفريع الفروع من الادلة ، ويرشد اليه تعريفهم الفقه بأنه

---

(١) أنظر المستمسك ج١ ص٥٣

(٢) أنظر المصدر السابق ج٢ ص١٩٨

علم بالاحكام الفرعية الشرعية عن أدلتها التفصيلية . والحقيقة ان المجتهد من حاز ملكة التفريع وملكة التطبيق ان صح التعبير ، اي ان الاجتهاد تفريع وتطبيق لا تفريع وكفى فضع هذه الحقيقة في حسابك وأدر بصرك في اية صفحة شئت من صفحات المستمسك فانك واجد للطتبيق السليم أثره المنظور الملموس وبخاصة في مسائل الخلل ج ٥ حيث يبدو العقل الجبار والفكر المخترع والنظر البعيد .

واذا دل المستمسك على مكانة صاحبه من العلم فانه ولا ريب اصدق في الشهادة ، واقوى في الدلالة على عظمة آل الرسول ، وان فقههم يفي بسد حاجات العلم والعمل ، ويصلح لكل ما تستدعيه الحياة ، وان ما من جديد مفيد الا تجد له مصدراً في أخبارهم وآثارهم .

رواج المستمسك

ومن محاوله المحال ان نهدف الى التعريف بهذا السفر اليتيم تعريفاً حقيقياً، وان نفي بعض ما لمؤلفه من حق بمقال او اكثر .

ملحوظة

واقدم رجائي اذا قدر الباري تعالى ان يطبع المستمسك ثانيه [١] أقدم رجائي لمن سيشرف على طبعه ان يستأنس برأي العارفين بفن الاخراج فهناك أمور ، وان كانت شكلية فانها تعين القارىء وترغبه في المضي على انها اصبحت عند الاغلب من الضرورات وهي في نفس الوقت لا تستتبع زيادة التكاليف والنفقات مثلاً :

مزجت مسائل المتن - العروة - كلها في سطور متوازية دون ان يكون

(١) طبع ثانية ، واخذت هذه الملاحظة بعين الاعتبار .

بينها اي فاصل فقد تجمع مسألتان أو مسألة وبعض الاخرى في سطر واحد وكان الأولى ان تبتدىء كل مسألة برأس السطر كذلك جاء تعليق السيد مزجاً على هذا النحو . والأجدر ان يبتدىء كل شرح وتعليق بأول السطر وان يحذف من الشرح لفظة « قوله » وكلمات المتن الموجودة بين هلالين ويوضع رقم (١) و (٢) فوق بين اسطر العروة وتحت في اول سطر المستمسك وكذلك ينبغي ان يوضع لكل مطلب من مطالب السيد وتحقيق من تحقيقاته عنواناً بارزاً يشير اليه وهذا فضلاً عما فيه من التسهيل فانه يبعث الناظر الى الاطلاع على المعنون وان لم يكن قاصداً ذلك من بدء الامر لعدم عهده بـه وبعده عنه .

« ويرى الذين اوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد » .

ثلاثة كتب

ثلاثة كتب جاءت في حينها ، واصابت الهدف في مرماها، وادت الغرض المطلوب من وضعها على افضل الوجوه واتمها واكملها ، ومرد ذلك الى ان الرماة من اهل الفن والاختصاص الذين يهديهم فنهم واختصاصهم الى الحقيقة وجوهر الاشياء..ان كل جملة او كلمة مما يكتبون ويتكلمون تشهد انهم على علم بما يقولون ، وانهم يدركون مواطن الضعف والقوة في خصمهم . اما الضعف فيكتفون باعلانه للملاء ، واما القوة فيجابهونها بنفس السلاح الذي تسلح به الخصم، او بما هو اقوى وامضى، مع احكام خطط الدفاع والهجوم، ومن هنا كانت لهم الغلبة ، وكان النصر حليفهم في شتى الميادين التي خاضوا معاركها ..

اما اهل التطفل والفضول ، اما الذين يؤلفون ويتصدون لاشياء ليسوا لها باهل فانهم يرتكبون ابشع الجرائم باسم العلم والدين ، من حيث لا يشعرون ، ويسيئون الى الله والرسول والأئمة ، من حيث لا يقصدون .. انهم يصورون الدين ، وكأنه اسطورة ابدعها خيال الانسان الحجري . . فيسلحون الخصم بعد ان كان اعزل ، ويعطونه الحجة علينا وعليهم بعد ان كانت عليه لا له .. وعندها يستفحل الداء ويستعصي على الحكيم العلاج

والشفاء .. ولا يعلم الا الله كم قاسينا ونقاسي من العنت والبلاء من هؤلاء القاصرين المتطفلين ..

الكتاب الاول

« الميزان في تفسير القرآن » للسيد محمد حسين الطباطبائي ، ويمتاز بخصائص لا تجدها مجتمعه في غيره من التفاسير قديمها وحديثها ، واهمها الخصائص التالية :

١ ــ ان منهج المفسر وطريقته في التفسير ان يذكر الآية ، ثم يسوق كل ما يتصل بها من آيات ، مع بيان السورة والرقم لكل آية ، ثم يستخلص المعنى الظاهر التي دلت عليه بمجموع الآيات ، كما لو كانت في سياق واحد ، لان المفروض ان مصدر القرآن واحد ، وانه يعتمد القرائن المنفصلة تماماً كالمتصلة ، ثم يعزز المعنى الظاهر ، ويدعمه بمنطق العقل ، ان كان من الموضوعات العقلية ، والا اقام الدليل على انه لا يتعارض مع العقل في شيء ، فاذا تم هذا انتقل بالمعنى القراني الى حياة المجتمع ، وقارن بينه وبين عقائد الناس وافعالهم وعاداتهم ، على اختلاف اديانهم ومذاهبهم ، واثبت ان من خالف القرآن في شيء من ذلك فقد تنكر لانسانيته وتجافى عن الحياة الكريمة التي تضمن له ولمجتمعه السعادة والهناء ، تم يلحق المؤلف بكل فصل من فصول الكتاب بابا مستقلا يورد فيه طرفاً من احاديث الرسول واهل بيته ، تتصل بموضوع الآيات التي تناولها بالشرح والتفسير ، فجاء هذا المنهج الجديد تفسيراً للقرآن بالقرآن ، وبالحديث ، وبالعقل ، وبالحياة ، ان صح التعبير ..

٢ ــ تجرد المؤلف ، ونبذه التقليد ، والتعصب لمذهب معين مما جعل منهجه منهجاً علمياً صرفاً .

٣ – بعد نظره ، وسعة ثقافته ، وقوة ملكاته المتعددة المتنوعة ، وقد ظهر اثر ذلك جلياً في آرائه الخاصة ، وان كان في بعضها مجال للنظر .. مثل تفسيره العصمة بالعلم الذي لا ينفك عن العمل به بحال[١]، وملخص ما فهمته من قوله ان العلم على نوعين : نوع لا يستدعي العمل به تلقائياً ، كعلمنا نحن ، فانه جزء من العلة لا يترتب عليه الاثر المطلوب ما لم تنضم اليه سائر الاجزاء كالرغبة ، وما اليها ، ونوع يستدعي العمل بذاته ، ويتنافى مع الترك ، كالشجاعة التي تتنافى مع الجبن ، والكرم الذي يتجافى عن البخل ، واذا كنا لا ندرك هذا النوع من العلم – كما قال – فلانه بعيد عن طبائعنا واذواقنا .

ويلاحظ عليه ان العصمة تكون ، والحال هذه ، اشبه بالتنفس خارجة عن الارادة والاختيار ، مع العلم بان المعصوم يترك القبيح مع قدرته على فعله ، ويفعل الحسن مع قدرته على تركه ، وعبارة السيد المفسر – هنا – تأبى التاويل ، حيث قال ما نصه بالحرف : « ومن هنا يظهر ان هذه القوة المسماة بالعصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة » .[٢]

وعلى اية حال ، فليست هذه الخصائص الثلاث هي كل ما في الكتاب من مزايا وسمات ، وانما هي كل ما احتفظت به الذاكرة ، وانا اسطر هذه الكلمات . . ولو رجعت الى الكتاب من جديد ، ودرسته دراسة شاملة كاملة ، وعددت كل ما فيه من خصائص وفوائد لوضعت كتاباً مستقلا بحجم كتابي هذا ، واضخم .

وبالتالي ، فان هذا التفسير فريد في بابه فقد كشف عن رموز القرآن ، واوضح ما فيه من متشابهات ، واوجد حلاً للمشكلات الفلسفية والاقتصادية والسياسية ، واثبت ان تعاليم القرآن قد تناولت مناحي الحياة بكلا طرفيها

(١) هذه النظرية هي عين نظرية سقراط القائلة: ان نظرية المعرفة لا تنفك عن الفضيلة، وانه متى توافرت معرفة العقل تحققت خيرية الأفعال.

(٢) ج ٥، ص ٨١.

الجسماني والروحاني ، وانها كافية وافية بسعادة الدارين ، وان للأسلام فضل السبق الى كل ما ينفع الناس ، واقل ما يقال فيه : انه العدة والعدد لمن يناصر الحق ويبتغي التبشير والدعوة الى الله عز وجل، واذا اهتم كل مفسر بناحية، كاللغة، والتشريع او التاريخ ، وما اشبه ، وغفل عما عداها فان المؤلف اهتم بشتى النواحي اللهم الا اسرار البلاغة القرآنية ..

وشيء آخر ، فقد تمنيت لو خلي الكتاب من هذا التعقيد الذي يضطر القاريء الى الجهد في التفكير ، والبذل من وقته الثمين ، واذا كان المعاصر يحب السرعة ، ويستعجل الوصول الى النتيجة فعلينا ان نسهل له السبيل ، ونعينه على تحقيق رغباته .. ولكن أي كتاب غير كتاب الله لا يقال فيه « لو » على ان هذه الملاحظة وما اليها ليست جوهرية ، بل ليست بشيء بالقياس الى عظمة الكتاب ، وما حواه من كنوز وفوائد ، جعلته يحتل المكان الاول في عالم التفسير ، ولست اغالي اذا قلت : ان المؤلف الطباطبائي قد طور علم التفسير ، ونقله الى عالم جديد ، وحرره من كل ما يأباه الدين والعقل ، كالاسرائيليات وما اليها ، وربط بينه وبين الحياة بشتى نواحيها ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على الرصيد الضخم الذي يملكه المؤلف ، والمواهب الجمة التي يتمتع بها ..

اكثر الله بين علمائنا من امثاله ، وجزاه عن الدين واهله افضل الجزاء .

الكتاب الثاني

« فلسفتنا » للسيد محمد الباقر الصدر ، ويهدف هذا الكتاب الى شيء واحد ، هو اصلاح العقول التي عميت عن كل شيء الا عن المادة ، فهي الاول والاخر ، وهي السعادة والنعيم الخالد .. هي كل شيء ، ولا شيء معها ولا

قبلها ولا بعدها ..

وماذا فعل سيدنا الصدر ، وهو يجـابه هـذا التيـار المتدفق من هنـا وهناك .

الجواب

قابله بصدر رحب ، وبعزم وثبات ، ووقف منـه موقف القوي الحكيم المتواضع الذي وثق من نفسه وعلمه بدون عنجهية وغرور ، فعرض مبادىء الماديين وادلتهم بصدق وامانة ، وحللها تحليلاً دقيقاً بمعرفة ومهارة ، واوضحها من شتى نواحيها باسلوب الاديب المبدع ، ثم ناقشها معتمداً عـلى الحقائق المسلمة نقاشاً علمياً سليماً ، وهادئاً رزينـاً ، تمامـاً كما يناقش اي عـالم او فيلسوف في اية فكرة لا تمت الى الالحاد بسبب .

وقد ظهرت براعة المؤلف ومقدرته العلمية في كل صفحـة من صفحات الكتاب ، وفي مناصرته ودفاعه عما يختار ويعتنق من آراء ، وفي هجومـه وضرباته القاتلة التي يوجهها لكل معارض ومعاند . . وقد وقفت طويلاً امام كثير من هذه الميادين والمعارك ، وانا انظر اليه بدهشة واعجاب ، وهو يهدم بمعوله الصلب بناء الماديين من الاساس .. من ذلـك اثبـات الحقيقة المطلقة ، والاستدلال على الفرق بينها ، وبين تطور الواقع الموضوعي وتغيره . . ومنها اقامة الدليل على ان أي نظام يرتكز على المادة وحدها ، ولا يمت الى المبـدأ الاعلى بسبب لا بد ان ينهار ، سواء أأسموه بالنظام الرأسمالي او الاشتراكي او الشيوعي .. ومنها كشف القناع عن النظريات التي ألبسها المـاديون ثوب العلم واستهدفوا من ورائها السياسة ، ومنافعهم الخاصة ..

والى جانب هذه المقدرة العلمية ، تجد اللباقة في التصرف ، والسلامة في

الذوق ، والحسن في المدخل ، واللطف في المداناة ، حتى مع اشد الخصوم عناداً ، واكثرهم تعصباً .. ينكر المعاند وجود الله ، لا لشيء الا لانه لم يره بالعين ، ولم يلمسه باليد .. فيبتسم المؤلف ، ولا يذكر له اسم الله ،ولا لفظ واجب الوجود ، ولا الدور والتسلسل ، وما اشبه . . لانه يعلم اي موقف يقفه من هذه الالفاظ والاسماء ، ومقدار نفوره منها ، وممن يتحدث بها وعنها . . وانما ينقله الى مبدأ العلية بوجه عام الذي يحسبه الجاهل جوا آخر لا يتصل بالغيب من قريب او بعيد ... وبعد ان يستدرجه من حيث لا يشعر ، ويطمئن الى هذا الجو الدافيء يقول له بكل بساطة – ولا اقول بمكر – : والان كيف تثبت مبدأ العلية ?. وبأي شيء تستدل عليه?. هل تثبته بالحس ?. – اللمس والنظر – والمفروض ان الاستدلال بالحس لا يمكن بحال الا بعد التثبت من مبدأ العلية ، وبدون اثباته لا يتم لنا ولك شيء ، حتى الاعتماد على النظر واللمس .. لان الحس لا يثبت بالحس .. بديهة ان الشيء لا يكون دالا ومدلولا في آن واحد ، ومن جهة واحدة .. فلا بد ، اذن ، من اللجوء الى العقل .. وبالتالي لا يبقى اي مجال للقول بان الله غير موجود ، لانه لا يدرك بالحس ..

هذي هي الحكمة والموعظة الحسنة التي تحقق الغاية من التبشير بالحق ، والامر بالمعروف .. وهذا هو الطريق القويم الذي يهدي التائهين الى شاطيء السلامة والامان .. ان العلم بلا حكمة ، والدقة في التطبيق اشبه بالجيش بلا نظام ، وبالسلاح بلا شجاعة .

وبعد ، فهل اتهم بالمحاباة اذا قلت : ان المؤلف رد لاهل العلم والدين كرامتهم ومكانتهم التي كانت لهم ايام زمان ? ! . وهل اتهم بالمغالاة اذا قلت : انه فضح الماديين ، ولم يبق لهم من باقيه ?!. وفي عقيدتي ان كتاب « فلسفتنا »لو ترجم الى اللغات الاجنبية لكان له شأن واي شأن .. ولقال

اهل الغرب والشرق : ان جامعة النجف اقوى خصم عرفه الماديون على الاطلاق [1] .

الكتاب الثالث [2]

عبدالله بن سبا   السيد مرتضى العسكري

كل شيء تطور الا الكتابة عن الشيعة ، ولكل بداية نهاية الا الافتراء على الشيعة ، ولكل حكم مصدره ودليله الا الاحكام على الشيعة!.. ولماذا؟ هل الشيعة فوضويون ومشاغبون يعكرون صفو الناس وامنهم ؟!..

الجواب ان رجلا يسمى سيف بن عمر التميمي مات في القرن الثاني الهجري ، وضع كتابين : الأول « الفتوح والردة » والثاني « الجمل ومسير عائشة وعلي » وحشاهما بما يلي :

١ ـ اختلاق الحوادث التي لا حقيقة لها ولا اساس .

٢ ـ تحريف الحوادث الثابتة ، وتزييفها تزييفاً يجعل الايجاب سلباً ، والسلب ايجاباً .

---

(١) لفظ ماديين يشمل كل من قال: لا وجود حقيقي لغير المادة ، سواء أألزم نفسه بتعاليم ماركس ، اولا .. ولفظ ماركسيين يختص بمن قال بهذا و دان بتعاليم ماركس ، تماماً كما يدين المؤمن بنبيه .. فالماديون اكثر واعم ، والماركسيون اقل واخص ، ومن هنا كان التعبير بلفظ الماديين انسب من التعبير بلفظ الماركسيين ، لان اللفظ الاول يشمل كل من لا يؤمن بالله ماركسياً كان او غير ماركسي ، وجامعة النجف تحارب الالحاد اينما كان ويكون بشتى صوره والوانه .

(٢) نشرت في العرفان تشرين الثاني سنة ١٩٦١ .

فلقد اختلق سيف لرسول الله (ص) اصحاباً لا وجود لهم ، واسماهم باسماء لم يسمع بها الرسول ولا احد من اصحابه ، مثل سعير ، والهزهار ، واط ، وحميضة ، وما الى ذلك ، كما ابتدع رجالا من التابعين وغير التابعين، ووضع على لسانهم الاخبار والأحاديث ..

من هؤلاء بطل اختلق شخصيته ، واختلق اسمه ، واختلق قضايا ربطها به ، هذا البطل الاسطوري هو عبدالله بن سبأ الذي اعتمد عليه كل من نسب الى الشيعة ما ليس لهم به علم ، وتكلم عنهم جهلاً وخطأ ، ونفاقاً وافتراء .

وجاء المؤرخون بعد سيف الوضاع ، فرأوا الكتابين المذكورين بين مصادر التاريخ ، فنهلوا منها دون فحص وتمحيص ، ونقلوا عنهما باعينهم وايديهم لا بعقولهم ، واول من خدع بسيف الطبري ، ثم نقل عن الطبري ابن الاثير ، وابن عساكر ، وابن كثير وغيرهم ، وبهذا امتدت اغصان سيف الكذاب الى مصادر التاريخ بصورة غير مباشرة ، اما الجذر والأصل فواحد كتاب الفتوح والجمل .

اما الدليل الصحيح الواضح ، اما الأرقام المحسوسة الملموسة على هذه الحقيقة ، فتجدها في كتاب « عبدالله بن سبأ » للبحاثة مرتضى العسكري ، فقد اعتمد في كتابه هذا منهج الحق والعدل ، والتزم بكل شرط يفرضه العلم في عملية البحث ، بحيث لا يستطيع القارىء مهما بلغ من الفكر والعلم ان يرفض النتائج التي توصل اليها المؤلف ، او يشكك فيها ، ولو باحتمال كيفي موهوم ، لان الاسس التي بني عليها المؤلف مادية لا فكرية فحسب ، ومشاهدات لا نظريات ، وقضايا ضرورية لا اجتهادية .

لقد رددت على المفترين والمعترضين مرات ومرات ، واعترف اني لم آت بجديد لا تعرفه الناس ، بل كنت اكرر ما اجاب به المفيد والمرتضى والعلامة ،

ولا شيء لي سوى الاسلوب والتوضيح .

ذلك ان الاعتراض واحد لم يتغير منذ زمان وزمان ، فجوابه ايضاً واحد لم يتغير ، تماماً كجواب من انكر الباري عز وجل .

وكنت اعزي النفس بان الكثير يجهلون ما اجاب بـــه الأولون ، وبان السكوت يغري بنا السفهاء ويفسر بالضعف والعجز عن الجواب ، وعلى أية حال فكنت أجيب كما أجاب غيري على اساس الاعتراف بأبن سبـــأ ، ثم الانكار والتبري منه ومن أقواله ، اما صاحب كتاب « ابن سبأ » فقد هدم البناء من الأساس ، وأثبت بان ابن سبـــأ اسطورة لا وجود له ، وهـــذا هو الجديد في الكتاب .

ولا أغالي اذا قلت : انه الكتاب العربي الوحيد الذي بحث التاريخ عـلى أساس العلم ، وتعمق فيه هذا التعمق .

وايضاً لست مبالغاً اذا قلت : ان المؤلف قـــد ادى الى الدين والعـــلم ، وبخاصة الى مبدأ التشيع خدمة لا يعادلها اي عمل في هذا العصر الذي كثرت فيه التهجمات والافتراءات على الشيعة والتشيع ، بل قد ادى خدمـــة جـــلى للاسلام وجميع المسلمين ، لانه اقفل الباب في وجوه السماسرة والدساسين الذين يتشبثون بالطحلب لتمزيق وحدة المسلمين ، واضعاف قوتهم .

لقد ذقنا من العملاء الأدهى والأمر ، وتحملنا منهم الكثير رغبة في الوئام، وتجنب الخصام ، ومـــا زادهم ذلـــك الا اغراء بالكذب ، ومصدرهم الاول والأخير اسطورة ابن سبـــا ، وخرافـــة ابن السوداء التي ابتدعهـــا سيف هـــذا الوضاع الذي لا يشعر بأية مسؤولية امام الله والضمير ، اما اليوم وبعد كتاب « عبدالله بن سبا » فماذا يقول هؤلاء الانتهازيون المرتزقة ؟!.

وبالتالي ، فاني ارى ان يتفضل السادة العلماء والمراجع الكبار في النجف

الأشرف بتخصيص مبلغ من الحقوق ، أو يأمروا من يمتثل اوامرهم من اصحاب الثراء باعادة طبع هذا الكتاب طبعاً حديثاً وأنيقاً على اجود ورق، ثم يعرض للبيع في البلاد الاسلامية والعربية بواسطة شركات التوزيع بثمن يقل عن نصف تكاليفه ، كي يصبح في متناول الجميع ، كما هي الحال في سائر كتب الدعايات التي يراد بها انتشار مبدأ وتشجيع فكرة ، بل أقترح ان يأمروا بترجمته الى عدة لغات ، وينشر على هذا النحو ، وبذلك يقدمون خدمة للدين دونها جميع الأعمال والخدمات . هذا هو والله الفرد الأكمل لمصرف الحق الالهي ، وسهم الامام « منه واليه » .

والله سبحانه المسؤول ان يحفظهم جميعاً ، ويلهم احد المقربين منهم الى نقل اقتراحي هذا الى مقامهم ، وان يستجيبوا له ، أو يضعوه في موضع الدراسة على الأقل .

من احتجاجات الائمة والعلماء

الجدال في الدين

قيل للامام الصادق : أصحيح ان رسول الله (ص) نهى عن الجـــدال في الدين ؟.

قال : لم ينه عنه مطلقاً ، وانما نهى عن الجدال بغير التي هي احسن .

قيل : ما الفرق بين الجدال بالاحسن ، وبين الجدال بغير الاحسن ؟.

قال : الجدال بالاحسن ان تأتي بالحجة والبرهان الذي من شأنه ان يقطع عذر المجادل ، ويزيل شبهته .. وكيف يكون الجدال في الدين محرماً ، وقد جادل القرآن الكريم المشركين والمعاندين ، كقوله : « وقالوا لن يدخـــل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين – ١١١ البقرة » وقوله : « قال من يحيي العظام وهي رميم قـــل يحييها الذي انشأها اول مرة – ٧٩ يس » . الى غير ذلك .

اما الجدال بغير الاحسن فان ترد على محق بالباطل ، او ترد على مبطـــل بغير الحق ، او تجحد حقا يريد المبطل ان يستعين به على باطـــله ، فتجحده

مخافة ان تكون له حجة عليك ، لانك لا تدري كيف المخلص ، فتكون مثله جحد هو حقاً ، وجحدت انت حقاً آخر .

اثبات المعبود

قال ابو شاكر الديصاني للامام الصادق : دلني على معبودي .

فاخذ الامام بيضة ، وقال : هذا حصن مكنون ، له جلد غليظ ، وتحته جلد رقيق ، وتحت الجلد الرقيق فضة سائلة ، وذهبة مائعة ، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة السائلة ، ولا هذه تختلط بتلك ، ولم يدخل فيها شيء ، ولم يخرج منها شيء ، ولا يدري أللذكر خلقت ام للانثى ، ثم تنفلق عن مثل الطاوس ، اترى لها مدبراً ؟.

قال الديصاني : نحن لا نؤمن الا بما ادركناه بالعين او السمع او الشم او الذوق .

قال الامام : ذكرت الحواس الخمس ، وهي لا تنفع شيئاً بغير العقل .

معرفة الله

قال العلماء : يعرف الله بطرق ثلاث :

١ – دليل الفطرة الذي يعبر عنه بان البعرة تدل على البعير ، والصنعة تدل على الصانع ، وهذا الدليل يشترك فيه العالم والجاهل ، والكبير والصغير ، والعادل والفاسق ، فكل انسان اذا نظر الى نفسه ، وانه وجد بعد العدم ، وانه خلق من نطفة ، وانه لم يخلقه ابواه ، ولا هو خلق نفسه يجزم لا محالة بوجود الخالق المدبر .

٢ – الدليل النظري ، وهو ان يعرف الله بصفاته الكمالية بالدليل وبرهان

العقل ، كما دونه المتكلمون والفلاسفه الالهيون .

٣ - دليل الاشراق ، وهو ان الانسان متى خلصت نفسه من الشوائب ، وانصرفت عن كل ما يشين انعكست في قلبه معرفة الله سبحانه ، بدون استعمال النظر ، تماماً كما ينعكس المثال في المرآة الصافية .

والدليل الاول والثاني ينتقل بنا من العلم بالمسبب الى العلم بالسبب ، ومن العلم بالاثر الى العلم بالمؤثر ، والدليل الثالث بالعكس ، ينتقل بنا من العلم بالسبب والمؤثر الى العلم بالمسبب والاثر . وهذا اعلى مراتب المعرفة . قيل للامام علي (ع) : هل عرفت الله بمحمد ، او عرفت محمداً بالله ؟.

قال : ما عرفت الله بمحمد ، ولكن عرفت محمداً بالله .

شيء من لا شيء

سأل ملحد الامام الصادق ، فقال : هل وجد هذا الكون من شيء ، او من لا شيء ؟.

قال الامام : وجد من لا شيء .

قال الملحد : كيف يجيء شيء من لا شيء ؟!.

قال الامام : لو كان كل شيء يؤخذ من شيء لما امكن ان يوجد شيء ابداً .. واليك المثال : لو قلنا لا ثمرة الا من شجرة ولا شجرة الا من تراب ولا تراب الا من ارض ،ولا ارض الا من شمس، ولا شمس الا من ذرات ، ولا ذرات الا من شيء..فهذا الشيء الاخير لا بد ان يكون قد وجد من لا شيء، والا لما وجد شيء ابداً .. لا ارض ، ولا سماء ، ولا وجود بالمرة ..

وان قال قائل : حتى الشيء الاخير قد اخذ من شيء غيره .

قلنا في جوابه : اولاً على هذا لا يكون اخيراً.. ثانياً يلزم من ذلك ان لا يوجد – كما قدمنا – اذ المفروض ان الشيء من لا شيء الذي هو مصدر الاشياء كلها لا وجود له .. فالاشياء – اذن – لا وجود لها .. لان انتفاء الاصل يستدعي انتفاء الفرع ، مع ان الاشياء موجودة ، فالشيء من لا شيء اذن موجود .

كلما نضجت جلودهم

قال ابن ابي العوجاء للامام الصادق : ما تقول في هذه الآية : « كلما نضجت جلودهم بدلناها جلوداً غيرها » .. فهب ان جلودنا هذه قد عصيت ، فما بال غيرها التي لم تعص ؟!.

قال الامام : هي هي ، وهي غيرها .

قال ابن ابي العوجاء : وكيف ؟.

قال الامام : أرأيت لو ان رجلا اخذ لبنة ، فكسرها ، ودقها ، حتى عادت تراباً ، ثم صب عليها الماء وجبلها ، وارجعها الى هيئتها الاولى ، ألم تكن هي هي في مادتها ، وهي غيرها في هيئتها ؟!.

قال : امتع الله بك .

رؤية الله

سأل ابو قرة الامام الرضا ، فقال : لقد جاءت الروايات ان الله قسم الكلام والرؤية بين اثنين ، فكلم موسى تكليما ومنح الرؤية لمحمد (ص) .

قال الامام : ان رسول الله بلغ الناس جميعاً ، ان الله لا تدركه الابصار ، ولا يحيطون بعلمه ، وليس كمثله شيء ، فكيف يقول لهم بعد هذا : انا رأيته

وانا احطت به علماً ؟!.. فهل ناقض نفسه بنفسه ؟!.. الا تستحون ؟!..

قال ابو قرة : هذا القرآن يقول بصراحة في سورة النحم :

« ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى » .

قال الامام : ان آخر الآيات يدل على اولها ، ويبين ان الذي رآه محمد هو آيات ربه .. انظر الى قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » وآيات الله غير ذات الله [1] .

قال ابو قرة : انكذب الروايات ؟!.

قال الامام : نعم اذا كانت مخالفة للقرآن .

وقال ملحد للامام الرضا : انا لا اعتقد بالله ، لاني لم ادركه بحاسة من حواسي .

فقال له الامام : اما نحن فنعتقد ونؤمن به ، لانا لم ندركه بالحواس ، اذ الله شيء خلاف الاشياء .

اي ان ادل دليل على الالوهية انها تخالف كل ما يدرك بالحس ، وان السبيل الى معرفتها هي الفطرة او العقل او النفس الصافية [2] .

---

(١) ويعزز قول الامام قول الله سبحانه بعد هذه الآية بلا فاصل : « افرأيتم اللات والعزى ومنوة الثالثة الاخرى » فان الاستفهام التوبيخي ليس عن هذه الآلهة المزعومة ، لان المشركين رأوها قطعاً ، وانما هو عن عدم رؤية آثارها .. والمعنى ان محمداً رأى آيات ربه ، فهل رأيتم انتم آيات اربابكم ؟!.

(٢) ان الكثير مما نقلناه كان بالمعنى لا باللفظ ، لغاية التوضيح .

الرجوع الى الدنيا بعد الموت

يتساءل البعض : لماذا لم يعد أحد بعد موته الى هذه الحياة ؟.. وقد وجه هذا السؤال الى الامام الصادق ، فقيل له : لماذا لم يرد الله الى الناس ميت من الاموات ؟.

فقال : ان القرآن قد صرح بان الله سبحانه رد جماعة الى الدنيا بعد موتهم منهم اصحاب الكهف ، فقد اماتها الله ٣٠٩ سنة ، ثم بعثهم في عصر انكر اهله البعث والنشر ، ليقطع حجتهم ، ويريهم قدرته ، ويعلموا ان البعث حق قال تعالى : « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً – ٢٥ ».

ومنهم ارميا الذي نظر إلى خراب بيت المقدس، وما حوله حين غزاهم بخت نصر، فقال: «انى يحيي هذه الله بعد موتها فاماته الله مئة عام ثم بعثه ـ ٢٥٩ البقرة».

ومنهم قوم موسى حين توجه الى الله سبحانه « فقالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة – ١٥٢ النساء » فاماتهم الله ، ثم احياهم .

المشورة

قال الورثاني وهو من فقهاء السنة للشيخ المفيد : اليس من مذهبك ان رسول الله (ص) كان معصوما من الخطأ ، مبرءا من الزلل ، مأمونا عليه من السهو والغلط ، كاملا بنفسه ، غنياً عن رعيته ؟.

قال المفيد : بلى ، كذلك كان رسول الله (ص) .

قال الورثاني : فما تصنع بقوله تعالى : « فشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله » واذا افقره الله الى اصحابه ، وامره بالاستعانة بهم فكيف

يصح لك ما ادعيت مع ظاهر القرآن ؟!.

قال المفيد : ان رسول الله (ص) لم يشاور اصحابه ، لفقره الى آرائهم ، ولا لحاجة دعته الى مشورتهم ، كما ظننت وتوهمت ، كيف ؟. والنبي اكمل الخلق باتفاق اهل الكلمة ، واحسنهم رأياً ، واوفرهم عقــلاً ، واكملهم تدبيراً ، وكانت الملائكة تتواتر عليه بالتوفيق من الله عز وجل ، وبالانباء له عن المصالح ، ومن كانت هذه صفته لا يستشير من هو دونه ، لان الكامل لا يفتقر الى الناقص ، ولا العالم يحتاج الى الجاهل .

ثم قال الشيخ المفيد للورثاني : امـــا الآية التي استدللت بهـــا ، وهي « وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله » فانها حجة عليك لا لك ، لان الله امره ان يفعل متى عزم هو ، لا حين يشيرون عليـه ، فعلق وقوع الفعل بعزم النبي لا بمشورة الاصحاب ، ولو كان الامر على ما زعمت وادعيت لقال له : فاذا اشاروا عليك فاعمل بمشورتهم ، واذا اجتمعوا على رأي فأمضه.. وان قال قائل : اذن ما الغاية من المشورة قلنا في جوابه : ان الغـاية منهـا ان يتألف النبي اصحابه ، ويعلمهـم كيف يصنعون ويتعاونون فيـما بينهم ، فالاستشارة كانت لذلك لا لحاجته الى آرائهم .

الخلافة والنص

اختص الشيعة الامامية بالقول ان النبى نص على الامام علي بن ابي طالب بالخلافة ، ورد عليهم السنة بردود ، اهمها ما اعترض به ابو بكر بن سيـار على الشيخ المفيد من انه لو صدر النص من النبي على خلافة الامام لعلمنا بـه ، واستحال ان يكون خافياً .. وقد تشبث بهذا القول كل من انكر خلافـة الامام ، حتى يومنا هذا .. واجابه الشيـخ المفيد بما لا يدع قولاً لقائـل ، واعتمد في جوابه منطق العقل والشرع ، ونلخص المحـاورة التي دارت بين الاثنين بما يلي :

قال المفيد لابن سيار : ان النص من النبي لم يكن خافياً حين صدوره ، وكل من حضره فقد علمه ، ولم يرتب فيه ، ولا اشتبه عليه ، اما الذين لم يحضروه ، ولم يسمعوه مباشرة من النبي فهم على نوعين : الاول بحث ودقق، واستعمل النظر المفضي الى الحقيقة كما فعل الشيعة . والثاني لم يسأل ، ولم يبحث ، او سأل وبحث ، ولكن دخلت عليه شبهة من الوراثة او البيئة والتربية كما هو شأنك ، وشأن امثالك .. ولو تأملت الحجة مجرداً عما يصرف عن الحقيقة ، لعلمت النص ، كما لو كنت حاضراً وقت اظهار النبي له .

قال ابن سيار : وهل يجوز ان يظهر النبي شيئاً في زمانه ، ثم يخفى على من يأتي بعده ، بحيث يحتاج العلم به الى النظر الثاقب والاستلال ؟!.

قال المفيد : نعم يجوز ذلك ، بل هو واقع بالفعل ، فليس كل ما نص عليه النبي قد علمه الجميع بالضرورة ، والا لم يقع الاختلاف فيما صدر عنه من الاحاديث ، مع إنا على علم اليقين انه قد نص على اشياء وفعلها ، وكررها وشهرها ، ثم خفيت ، ووقع فيها الاختلاف ، كصفة الوضوء ، وبعض اجزاء الحج ، والصلاة ، وبعض مفطرات الصوم ، وشروط الزكاة ، وما الى ذلك مما لا يبلغه الاحصاء . اذن ،لكي نعرف الحقيقة ونميزها لا بد من الاستدلال واعمال النظر .

قال ابن سيار : اذا كان الامر على ما ذكرت فمن الجائز ان يكون النبي قد نص على نبي معه في زمانه ، او يقوم بعده مقامه ، كما نص على امامة علي ، ثم خفي النص على النبي الثاني ، تماماً كما خفي النص على الامام ..

قال المفيد : هذا قياس مع وجود الفارق ، لان الامة اجمعت بكلمة واحدة على ان من يدعي وجود النص على نبي مع محمد او بعده فهو كاذب .. ولذا نكذبه بمجرد دعواه ، وبدون بحث واستدلال ، ولو اختلف المسلمون في تلك لاحتجنا الى التريث والبحث ، النص على امامة الامام فذهبت

اليه وآمنت بـه فرقة كبيرة من المسلمين ، وفيهـا الصحابة والتابعون وكبار العلماء والمحققين في كل عصر ومصر ، ولو اتفقت كلمـة المسلمين جميعا على عدم النص على الامام ، كما اتفقت على عدم النص على نبي مع محمد او بعده لكذبنا مدعيه بمجرد دعواه بدون استدلال وتأمل .

اختلاف الصحابة في الفتيا

وقع جدال طريف ومفيد جداً بين الشيخ المفيد ، وشيخ من اهل الري من كبار القوم ، ورؤساء شيوخهم ، وكان مبجلاً معظماً عند القوم . . ولان موضوع الجدال هام للغاية ، ومبدأ عام يتفرع عليه مسائـل شتى في اصول الدين وفروعه رايت ان امهد له بمقدمة يستعين بها القـاريء على تفهم كلام المفيد الذي بلغ من القوة ما لا يقوى على دحضها العلمـاء مجتمعين ، كما حوى حقائق لا يجوز ان يجهلها احد من المسلمين :

قال علماء السنة في كتب اصول الفقه : اذا اجتمـع الاصحاب على فتوى كان اجتماعهم حجة لا تجوز مخالفته ، وان اختلفوا على قولـين او اكثر لم يجز احداث قول آخر ، وقال بعض اهل الظاهر : يجوز ذلك (اللمـع في اصول الفقه لابي اسحق الشيرازي باب القول في اختلاف الصحابة) .

ولكن بأي الاقول يُؤخذ ؟. قـال الغزالي في المستصفى ج ١ ص ٢٧٢ طبعة ١٣٢٢ هـ : « نص الشافعي على انه اذا اختلف الصحابة فالأئمة اولى — اي يؤخذ بقول الذين فيهم الخلفاء الاربعة — فان اختلف الأئمـة فقول عمر وابي بكر اولى ، لمزيد فضلها » اي لا يسأل عن قول الامام علي مـع قول الشيخين . وقال صاحب « اللمع » ، وهو شافعي كالغزالي: بل يكفى للاولوية والترجيح وجود احد الشيخين ابي بكر او عمر. وقال صاحب «جمع الجوامع» ج ٢ ص ٣٣٥ المطبوع على هامش حاشية البناني سنة ١٣٠٨ هـ نقلا منسوباً

الى الشافعي : « ان قول الخلفاء حجة الاعليا » فلا يعمل بقوله .

وقال ابن حنبل : فتاوى الخلفاء الراشدين مقدمة على غيرها ، وفتاوى ابي بكر وعمر مقدمة على فتاوى علي وعثمان ، وفتاوى ابي بكر مقدمة على فتاوى عمر (كتاب ابن القيم الجوزية لعبد العظيم عبد السلام ص ٢٢٧ طبعة اولى) .

اما ابو حنفية فعلى طريقته كان يختار من قول الاصحاب الراجح في نظره، ويدع المرجوح .. ولا يتقيد بابي بكر ولا بعمر ، ولا بالخلفاء مجتمعين ، ما دامت كلمة الاصحاب متفرقة .. اجل ، كان لا يخرج من قول الجميع الى قول جديد . وبعد هذا التمهيد ننتقل مع القارىء الى المحاورة التالية :

سئل الشيخ المفيد عن شيء في الفقه ؟ فافتى فيه على مذهب اهل البيت ، وكان ذلك في مجلس ضم جماعة من القوم فيهم شيخ كبير من اهل الري .

فقال شيخ الري : هذا القول مخالف للاجماع .

المفيد : وأي اجماع تعني ؟

شيخ الري : اجماع الفقهاء .

المفيد : وهل يدخل آل محمد في جملة الفقهاء او هم خارجون عنهم ؟ .

شيخ الري : بل داخلون ، على شريطة ان يثبت ما تروون انتم الشيعة عنهم لما يخالفنا نحن السنة .

المفيد : انك تقول خلاف ما تعتقد ، وتدعي غير ما تعمل ، فانت تقول : نعمل بما ثبت وصح عن اهل البيت ، وهذا غير صحيح ، لان السنة يرون الخلاف على امير المؤمنين في كثير مما ثبت وصح عنه من الاحكام ، مع انه سيد

اهل البيت ، واذا طرحتم ما صح عن علي فبالاولى ان تطرحوا مـا صح عن ابنائه وذريته .

شيخ الري : معاذ الله .. ان هذا لا يذهب اليه احد من فقهائنا .. وهذه شناعة منك على القوم بحضرة هؤلاء الرؤساء .

المفيد : انا لم اقل الا الواقع ، وعندي الدليل عليه والبرهان .. ثم اقبل المفيد على الحاضرين ، وقال لهم : وازيدكم ان شيوخ هذا الرجل وأئمته يقولون : يجوز أن يخطيء امـير المؤمنين في شيء يصيب فيه عمـرو بن العاص .. فاستعظموا ذلك ، وتبرأوا من قائله ، وانكر شيخ الري هذا ، وبالـغ في انـكاره .

وبعد ان استدرجه المفيد الى هذا الانـكار ، وانتزع منه الاعـتراف والاقرار من حيث لا يشعر كر عليه سائلاً :

اليس من مذهبك ومن مذهب فقهائك ان عليا غير معصوم ؟!.

شيخ الري : بـلى .

المفيد : اذا كان علي غير معصوم كما تزعمون جاز عليه الخطأ بحكم الضرورة .

شيخ الري : وجـوم .. « فبهت الذي كفر والله لا يهـدي الـقوم الظالمين » .

المفيد : اليس عندكم ان امير المؤمنين كان يجتهد برأيه ، وان عمـر بن العاص وابا موسى الاشعري والمغيرة بن شعبة كانوا من اهل الاجتهاد ؟.

شيخ الري : بـلى .

المفيد : ما دام علي غير معصوم ، وانه يجتهد كغيره من امثال هؤلاء ،

والمفروض ان كل مجتهد يصيب تارة ، ويخطيء تارة ، فماذا الذي يمنع اذا اختلف علي مع ابن العاص في الاجتهاد ان يصيب ابن العاص، ويخطيء علي؟!.

شيخ الري : ليس يمنع من ذلك أي مانع . . « فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لاصحاب السعير » .

المفيد : انك اقررت ما انكرته الآن ،وفي هذا المجلس بالذات، واعترفت بكل ما نسبته اليك والى فقهائك من انكم تقولون ما لا تعتقدون ، وتدعون ما لا تفعلون .. تزعمون بافواهكم انكم تقدسون آل الرسول، ولا تقدمون احداً عليهم .. وعند النتيجة والعمل تساوونهم بسائر الناس.. بل وتقدمون غيرهم عليهم .. ولا يذهب الى هذا من كان في قلبه جزء من مودة آل محمد الذين فرض الله طاعتهم على الناس اجمعين ، وجعل الراد عليهم راداً على رسول الله ، والراد على رسول الله راد على الله عز وجل . . فلقد جاء في التنزيل : « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » .. وجاء في الحديث : « علي مع الحق ، والحق مع علي يدور معه كيفما دار » .. « انا مدينة العلم وعلي بابها » .. « علي اقضاكم » .. الى غير ذلك .

ولما بلغ المفيد من كلامه الى هنا ارتفعت اصوات الحاضرين مؤيدة الشيخ المفيد ، ومرددة : اللهم انا نبرأ اليك من هذا المقال ، ومن كل من يدين به .. فكاد شيخ الري يموت خجلاً .. « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فاخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار » .

صحيح البخاري

للسنة كتب ستة جمعت خير ما عندهم من احاديث ، ويعبرون عنها بالصحاح ، وهي : كتاب البخاري ، ومسلم ، وابي داود ، والترمذي ،

والنسائي ، وابن ماجة ، واهم الستة كتاب البخاري ومسلم ، ولذا يعبرون عنهما بالصحيحين ، ولا يسأل اكثرهم عن صحة الحديث اذا جـــاء فيهما او في احدهما .. والبخاري مقدم على مسلم ، ولو جمع ما قيل في مدحه لجـــاء في مجلد ضخم ، وآخر ما قرأته عنه فصل بعنوان « امير المؤمنين في الحديث » من كتاب « رجال من التاريخ » للشيخ علي الطنطاوي ، جاء فيه .

« الكتاب الذي نعده بعد كتاب الله عماد ديننا ، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا ، ونقيم عليه امر دنيانا وآخرتنا . اما عرفتموه ؟!.. اي كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة الا صحيح البخاري ؟!.. »

وهذا الكتاب الذي يأتي بعد القرآن مباشرة ، ويجعلونه حجة لله عليهم ، تماماً كما لو سمعوا الفاظه من فم الرسول الاعظم (ص) .. هذا الكتاب يحتوي على احاديث تتنافى مع القرآن والعقل ، وتوجب الشك في صـدق الراوي ، وبالتالي عدم الاعتماد على الكتاب ، ونذكر منه حديثين على سبيل المثال :

الاول : جاء في الجزء الاول ص ٦٣ طبعة ١٣١٤ هـ باب مباشرة الحائض: « قالت عائشة كان النبي يأمرني فأءتزر ، فيباشرني ، وانا حـــائض » . . وايضاً في الصفحة المذكورة : « قـالت عائشة : كانت احـــدانا اذا كانت حائضاً ، فاراد رسول الله ان يباشرها.امرها ان تتأزر ، وهي في فوران حيضها ، ثم يباشرها، قالت : وايكم يملك اربه ، كما كان النبي يملك اربه ».

وهذا الحديث الذي اثبته البخاري في صحيحه يتنافى مع الآية ٢٢٢ من سورة البقرة : « ويسألونك عن المحيض قـــل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » .. وايضاً يتنافى مـــع عظمة الرسول ، وقداسة الرسالة الملقاة على عاتقه ، واذا عجز النبي عن كبح شهواته فكيف يكون اميناً على وحي الله ؟!.. ان الرجل – غـير الرسول – لا تكمـــل

رجولته ، حتى يملك شهوته وميوله ،فكيف لا يملكها من بلغ سدرة المنتهى ، وراى من آيات ربه الكبرى ؟! ..

الحديث الثاني جاء في البخاري ايضاً ج ٤ ص ١٢ طبعة دار التعاون :

« قال النبي رأيتني دخلت الجنة.. ورايت قصراً بفنائه جارية ، فقلت: لمن هذا ؟ . فقال : لعمر . فاردت ان ادخله ، فانظر اليه فذكرت غيرتك يا عمر . فقال عمر : بأبي انت وامي يا رسول الله أعليك أغار ؟!. » .

ونتساءل : هل عند اهل الجنة غيرة وما اشبه ؟! .. وهل بلغ الامر بعمر أن يسيء الظن بالنبي ، حتى وهو في الجنة ؟! .. او يحتمل محمد في خليفته الثاني ان يضعه موضع المتهم ، وادنى من في النعيم لا تصدر منه معصية ، ثم هل كان النبي جاهلاً بما اعد لعمر من جوارٍ وقصور ؟! .. وكيف اراد النبي امراً لم يتحقق ، وهو في الجنة ؟! .. والمعروف من دين الاسلام ان ادنى اهلها اذا اراد شيئا تحقق بمجرد ان يريد .. حقاً ان واضع هذا الحديث بلغ من الجهل حد العته والبله .. واجهل منه من يصدقه ، ويأخذ بحديثه ..

وقد اثبت الشيخ محمد حسن المظفر في اول الجزء الاول من كتاب « دلائل الصدق » ان البخاري احتج بجماعة في صحيحه بعد ان اعترف بضعفهم ، ونقل هذا القول عن الذهبي وابن حجر . . وقال المظفر : ان اكثر رجال السند في اخبار الصحاح الستة قد طعن فيهم السنة انفسهم ، ونعتوهم بالضعف والكذب والتدليس وما الى ذلك ، ونقل الطعون بهم من كتب السنة .. وقد استغرق بحثه حول الصحاح ورواتها ٥٨ صفحة بالقطع الكبير .

وفي اعتقادي إنا في امس الحاجة الى نقد كتب الحديث ، سواء منها كتب السنة والشيعة ، ودراستها دراسة علمية نزيهة ، كما فعل الشيخ محمود

ابو رية في كتاب « اضواء على السنة المحمدية » وكتاب « ابو هريرة في المرآة » .. وهل لأمة من الامم علم وثقافه اذا لم يكن لها نقد ودراسة لتاريخها وتراثها .. واذا لم تتجرد عن التقليد والتعصب للقديم ?!..

وللشيعة كتب كثيرة في الحديث ، واحسنها عندهم اربعة : الكافي ، والتهذيب والاستبصار ، ومن لا يحضره الفقيه ، واحسن هذه الاربعة الكافي ، قال الشهيد الثاني : احسن كتب الحديث الكتب الاربعة . وقال المفيد : اجل كتب الشيعة واكثرها فائدة كتاب الكافي ، وقد تبين لك من هذا ان الشيعة لا يعبرون عن هذه الكتب بالصحاح ، كما هي الحال عند السنة ، بل بالاحسن والاجل ، وبديهة ان الاحسن شيء ، والصحيح شيء آخر . . فان لصحة الحديث عند الشيعة مقاييس خاصة ، وليس منها وجوده في كتاب معين ، قال الوحيد البهبهاني : « ان صحة الحديث عند صاحب الكافي لا تستلزم صحة كل ما في الكافي، واثبات الاحكام الشرعية بمجرد مقالته جرأة عظيمة » . [1]

وفي النهاية ان الشيعة لا يحكمون بصحة الحديث لمجرد وجوده في الكتب الاربعة ، فما كل حديث فيها صحيح عندهم ، ولا كل حديث في غيرها ضعيف ، والمعول على ثقة الراوي في نفسه ، او على قرائن تدل على صدقه في هذا الحديث بالذات . اما اكثر اهل السنة فيحكمون بصحة الحديث لمجرد وجوده باحد الكتب الستة ، بخاصة مسلم ، وبصوره اخص البخاري..

(١) انظر «مستدرك الوسائل» للنوري ج٣ ص٥٣٤ وما بعدها .

السيد محسن الامين [1]

لا اريد ان اكتب عن الامام السيد محسن الامين وعلومه واعماله ومكانته، لاني كتبت ونشرت عنه قبل اليوم ، وكتب كثيرون غيري في حياته وبعد وفاته ، وانما اريد ان اتكلم عن كتاب ظهر حديثاً يحمل اسم « السيد محسن الامين بقلمه واقلام آخرين » . قرأت هذا الكتاب من البداية الى النهاية وكأني كنت معه منذ ولادته الى اليوم الذي انتقل فيه الى رضوان ربه .

عاش السيد ٨٧ سنة قضاها في القرية الحقيرة والعاصمة الكبيرة ، وفي الرحلات الى العراق وايران والحجاز وجالسه الفلاحون والعمال ، والملوك والحكام ، والعلماء والزعماء ورافق الاحداث الجسام والثورات والانقلابات ، وكان في جميع ادواره وحالاته الرجل الطيب الصريح البسيط العظيم المتواضع لا يعرف التكلف ولا التزمت ، يعامل الجميع بعقله وضميره ودينه دون ادنى اعتبار لجاه او مال او نسب ، وكان سلوكه هذا مع الناس تماماً كسلوكه مع نفسه ، كان طالباً صغيراً ، وغلاماً فقيراً لا يعرفه الا اهل قريته واترابه في

(١) كتبت كلمة عنه في كتاب «مع الشيعة الامامية»، ونشرت هذه في بعض الصحف البيروتية على أثر صدور الجزء الأربعين من أعيان الشيعة «السيد محسن الأمين» ولا أذكر اسم الصحيفة التي نشرت فيها.

الدرس ، ثم اصبح مرجعاً كبيراً للطائفة الشيعية ، له شهرة واسعة ومكانة عظمى في العالم العربي والاسلامي ولكنه بقى كما كان هو هو في سره وعلانيته ومأكله وملبسه وحديثه ومجلسه لا يرى لنفسه امتيازاً في شيء ، وكان الذي يراه ولا يعرفه بشخصه يظن انه من ابناء الشعب العاديين ، وقد تجلى هذا الخلق الكريم في سيرته من اول حياته الى آخرها ، وبخاصة بعد ما ثنيت له الوسادة واصبح السيد الاول والمرجع الاكبر .

جاءه رجلان من الهرمل الى شقراء في جبل عامل اثناء الحرب العامة الاولى وطلبا اليه ان يذهب معهما الى الهرمل ليصلح بين فئتين تفاقم بينهما النزاع حتى خيف من سؤ العاقبة ، وبعد ان فشلت كل محاولة للاصلاح ، وذهبت جهود المصلحين على غير جدوى لبى السيد الدعوة ، ولما وصل الى بيروت وجد ان السفر الى الهرمل يحتاج الى ترخيص من دائرة الشرطة وانه لا يعطى الا لمن يطلبه يداً بيد ، فذهب بنفسه الى الدائرة ، ووجدها ملأى بالناس ، والجلاوزة تطردهم طرد الغنم ، فوقف على عظمته مع المواطنين كأحدهم ولم يجد اي حرج في ذلك ،وحصل على الترخيص وسافر الى الهرمل ، فاصلح ذات البين والف بين القلوب .

وذهبت يوماً لاشتري اللحم من القصاب (ابو خليل) وكان السيد جاراً له ولي في الشياح فوجدته جالساً في دكانه ، وقد اضرم له ابو خليل النار ، وكان الفصل شتاء ، ولاحظت(ابو خليل) في سرور وابتهاج على غيرعادته ، فعلمت انه يعتز بجلوس السيد في دكانه فقلت – مازحاً – يا لطيف السيد محسن رئيس المسلمين يجلس في دكان القصابين ، فقال:نعم محسن في دكان القصابين ، ثم ماذا .. والتفت الى (ابو خليل) وقال له هات كرسياً للشيخ ، وقال لي : اجلس . فجلست الى جانبه ، وبعد لحظات مر بائع برتقال متجول ، ولما رأى السيد اقبل عليه يقبل يده ، واختار برتقالة كبيرة وقدمها له ،

فقال له السيد : قشرها ، فقلت له : الان عرفت سر جلوسك هنـا . فابتسم وقال : سأطعمك منها .

وكان السيد عميق الاحساس والشعور بآلام البؤساء والضعفاء ، جـاءت الحرب الاولى وجاء معها المرض والجوع والموت ، وكان يسكن السيد في قرية شقراء فواسى اهلها بنفسه واولاده وشاركهم في مكاره العيش ، وكان يتولى تجهيز الموتى ودفنهم لان المرء يومذاك كان يفر من امـه وابيه ، وزوجتـه واخيه ، واقسم اني لم املك نفسي من البكاء وانا اقرأ وصفه لما اصاب الناس في تلك السنين الصعاب .

وبالتالي ، فقد حوى الكتاب صوراً صادقة عن حياة العامليين وعاداتهم ، وعن المدارس العلمية الدينية في عهد الاتراك وعن الطلاب والعلمـاء في النجف وعن الحرب وفجائعها وما الى ذلك من الوقائـع والحقائق التاريخية التي لم يدونها احد من قبل وكان رحمه الله حريصاً كل الحرص ان يقدم هذا الكتاب للطبع قبل ان يسبقه الاجل خوفاً عليه من الضياع ، ولكن تم امر الله قبل ان يراه مطبوعاً وقد ترك مؤلفات اخرى مخطوطة واوصى ولده السيدحسن بطبعها . فبذل اقصى ما لديه من جهد للعمل بالوصية الغالية ، وانجز مـا انجز من تلك الآثار القيمة ومنها هذا السفر النفيس ، واسأل الله سبحانـه ان يكون في عونه لاخراج ما بقي ، وقد لمست منه العزم والاخـلاص لتنفيذ وصية الامام ، اما شبابنا فان لهم في القصص الغرامية والروايات البوليسية غنى عن العلم والتاريخ والاخلاق .



من هو خليفة شرف الدين ؟[1]

أتى على المقدس شرف الدين حين من الدهر وهو من رؤساء العلماء في جبل عامل ، ثم أصبح بعد وفاة زملائه الكبار – عليه وعليهم الرحمة والرضوان– الرئيس الاول وحده لا شريك له . اما اليوم وبعد ان لبى هذا الجليل نداء ربه فيرى البعض انه « الخليفة » دون غيره ، وآخر انه أحد أطراف الشبهة المحصورة،وثالث انه الفرد المردد بين تعيينه بالذات والتخيير بينه وبينغيره[2].

وطريقة الإمامية في اختيار الشخص لهذا المنصب الخطير تخالف ما عليه سائر الطوائف فهو لا يعين بمرسوم من مصدر رسمي ، ولا بالانتخاب من فئة معينة ؛ اما المراسيم فهي عندهم من اختصاص المعصوم الذي لا يجترح السيئات، ولا يتأثر بالشفاعات ، اما الانتخاب فالشيعة تخافه ، ولا تثق بـــه من يوم السقيفة والشورى ، حيث صغى رجل لضغنه ، ومال الآخر لصهره مـع هن

---

(١) نشرت في العرفان ، ايار سنة ١٩٥٨ ،جواباً عن سؤال جاءني بهذا العنوان .

(٢) مثل الفقهاء للشبهة المحصورة برجل أراد الوضوء ، وليس لديه إلا اناءان يعلم أن أحدهما طاهر والآخر نجس ، ولم يميز الطاهر من النجس . قالوا: يجتنب الاثنين ويتيمم ، ومثلوا للشبهة غير المحصورة باناء نجس بين الف اناء . قالوا: يتوضأ من أحدها ويصلي. ومثلوا للتعيين والتخيير بعالمين يدور الامر بين ان يكونا متساويين في العلم او ان احدهما اعلم فيجب الاخذ بقول محتمل الاعلمية . لأنه مجز على كل حال .

وهن ، وازدادوا بالانتخاب كفراً ، ومنه نفوراً حين شاهدوا نتائجة الوخيمة في هذا البلد وغيره من البلدان ، لذا يتركون الانتخاب الى الطبيعة ، الى مؤهلات الشخص وصفاته ، واحساس الناس وشعورهم ، ودائماً يأتي هذا الاحساس العام ، وكأنه وحي من السماء ، اذ لم يعرف في عهد من العهود - كما أعلم - أن كلمة الطائفة بجميع افرادها وهيئاتها اتفقت على ضلالة ، وبدون سبب مشروع .

ان الفرد مهما ملك من الاساليب فلا يستطيع ان يخدع شعباً بأكمله أو طائفة بأسرها باسم الدين أو الوطنية .

ومهما يكن فان الامامية يعتبرون في المرجع الديني شروطاً قاسية جداً . وصفات لا تتوافر الا لمن رحمه الله سبحانه وشمله بعنايته ، فأول شرط عندهم في خليفة الرسول الاعظم أن يكون معصوماً عن الخطأ قبل الخلافة وحينها ، وأول شرط في وكيل الخليفة والنائب عنه ان يكون تقياً عادلا ، يعرف الحق ويعمل به ، ولا تأخذه فيه لومة لائم ، بل قال المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم في مستمسك العروة ج ١ ص ٣٤ الطبعة الثانية « المرتكز عند فقهاء الشيعة قدح المعصية في هذا المنصب على نحو لا تجدي عندهم التوبة والندم ، فالعدالة عندهم مرتبة عالية لا تزاحم ولا تغلب . والإنصاف انه يصعب جداً بقاء العدالة للمرجع العام في الفتوى كما يتفق ذلك في كل عصر لواحد أو لجماعة اذا لم تكن بمرتبة قوية عالية ذات مراتب سامية فان ذلك مزلة الأقدام ومخطرة الرجال العظام » ويتفرع على شرط العدالة والورع أمران :

الأول : ان يتبع الرئيس سياسة الحياد وعدم الانحياز لهذا أو ذاك ، ولو تظاهر عليه المبطلون ، بل حتى ولو أدى تصلبه في جنب الله الى تنحيته عن منصب الرياسة ، او تسليم رأسه .

الثاني : ان يقوّم الاشياء بما تستحق ، ويقيس كلاً بما هو فيه ، فلا يرفع من شأن الدعاة المؤيدين ، والأذناب التابعين ، ويجحد فضل الذين لا يطبلون له ويزمرون ، أو قل : لا يسير على طريق المتزعمين المحترفين ، وغيرهم من الذين لا يعملون الا للربح والكسب . ان الشيعة ينظرون الى صاحب هـذا المنصب على أنه يستوحي أقواله وأعماله من مبادىء القرآن الكريم وأخلاق الرسول الامين ﷺ وينهج منهج الامام (ع) في التجرد والاخلاص .

وقد روى الثقاة ان الخريت بن راشد قال للامام (ع) : لن اشهد معـك الصلاة ، ولن أمتثل لك أمراً ، وليس لك علي من سلطان . فقال له الامام : لك ذلك ، على شريطة ان لا تعتدي على احد ، ولا تسيء الى انسان ،وكان يعطيه نصيبه من الفيء أسوة بسائر الناس فلا يحابي موالياً، ولا يحرم معادياً، ترك الامام الحرية للخريث مع ما له عليه من حق الولاية وما في يده مـن القوة ليعطي أرباب المناصب درساً في إنكار الذات ، والترفـع عن كل تهمة تشين . ولا أحد أولى بالاقتداء بسيد الأوصياء من شيعته ، وبخاصة رجـال الدين الذين جاوروا مقامه المقـدس سنوات طوالا ، وبصورة اخص الرئيس الذي يبث تعاليمه ويتكلم باسمه .

ومرة ثانية اقول : ان الشيعة يتركون التصفية والغربلة للأيام، فهي وحدها الكفيلة باختيار الأصلح والأصدق والأنفع .

أجل اننا نفكر ونقدر ونرشح هذا دون ذاك ، ولكن على سبيل التنبؤ لا الاختيار ، والتخمين لا التعيين ، لقد قاوم شرف الدين من قاومه ، وأبى ان يعترف بمكانته ومنزلته ، بادىء ذي بدء ، ولكنه استسلم في النهاية لقوة الحق ، وخضع لمنطق الواقع الذي لا معدى عنه « فأما الزبد فيذهب جفـاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

الشيخ محمد دبوق [1]

قال الامام علي بن ابي طالب (ع) . اللهم انت كما اريد ، فاجعلني كما تريد لا يريد الامام إله يحقق الشهوات ، لا إله يملك الثواب والعقاب فحسب ، ان الإله الذي اراده الامام وناجاه من كان اهلا لعبادة الصفوة أمثاله ، لأن من يفعل الخير ، لانه خير ، ويكف عن الشر لانه شر ، لا يعبد الا من كان اهلاً لهذه العبادة النزيهة السامية .

هنا وفي هذه العبادة التي هي غاية لا وسيلة ، وعلى هذه القمة من الاخلاص الذي لا فضيلة فوقه ، ودونه كل الفضائل تجد الامام علي بن ابي طالب (ع) .

ومن عبد الله رغبة في المثوبة عبد سواه اذا عجل له بها ، ومن عبد الله خوفاً من العقوبة عبد غيره اذا خشيها منه . ان هذا الخلق، وهذه العبادة ، عبادة التجار والعبيد تستعبد صاحبها في كل يوم لرب جديد ، تنزه عنها الأئمة الاطهار والاولياء الابرار . قال الامام مناجياً ربه سبحانه : ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، وانما وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك ، وأي روح اسمى من هذه الروح واكرم وطاعة افضل منها واعظم !! فعلي إذن كما اراد الله ما في ذلك شك ولا ريب .

---

(١) نشرت في العرفان ـ آب ١٩٥٠

على هذا الاساس اساس ارادة الله ومرضاته ترتكز افعال الامام وتعاليمه وعلى هذا الاساس ارتضى الشيعة علياً اماماً ، ارتضوه اماماً لأنه كما اراد الله ورسوله ، اما هو (ع) فلا يرتضي من شيعته احداً إلا من بنى افعاله واقواله على اساسه ومبدئه ، وكان في جميع حالاته كما اراد الله ورسول الله .

وتتجلى هذه الارادة القدسية في شخص المرحوم الشيخ محمد دبوق باجلى معانيها ، قال السيد عبد الحسين شرف الدين :

« شيخنا المقدس الشيخ محمد دبوق المتوفي في بلدة خربة سلم يوم الجمعة خامس المحرم ١٣١٧ عن عمر اناف عن الخمسين ، وكان نسيج وحده في شرف النفس وكرم الخلق ، والاخلاص لله تعالى في حركاته وسكناته ، دقيقاً في في محاسبة نفسه ومراقبتها في نطقه وصمته ، وفي فعله الشيء وعدم فعله اياه ، ذاهباً الى الله تعالى باسلوب الحكماء ومواعظهم الحسنة ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، جمع الله فيه ملكات اوليائه المقدسين ، وكان في منتهى الزهد والتواضع ، وعزة النفس ، اديباً كاملا في الادب ، شاعراً ذا بديهة في الشعر فائقة ، كاتباً مفوهاً جواداً سخياً ، موطأ الاكناف يألف ويؤلف قريباً من قلوب الناس كافة ، مقدماً في العلوم العربية كلها ، متفقهاً فاضلا في الفقه واصوله . معدوداً في حفظة الحديث واثباته ، مقرئاً للقرآن ، له ضلع في تفسيره ضليع . اخذ العلوم عن جماعة من اعلام جبل عامل كالشريف العلامة السيد جواد مرتضى الحسيني في عيثا ، وعلم عاملة في وقته الشيخ موسى شراره في بنت جبيل ، واخذ في شحور عن سيدنا الوالد اعلى الله مقامه مدة طويلة ، فكان افضل حوزته الشريفة ، ثم هاجر في طلب العلم الى النجف الاشرف فأخذ القوانين في اصول الفقه عن الشريف السيد نجيب فضل الله الحسيني ، وقرأ عليه الرسائل للامام الشيخ مرتضى الانصاري ، واخذ عن عدة من اعلام ذلك العصر ، ثم رجع الى البلاد مريضاً

فـكان من اعلام الهدى ومصابيح الدجى حتى لحق بربه مجاهداً في سبيله حشره الله في زمرة اوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

اما شعره فلم يجمع في ديوان ، ولم ينشر في صحيفة ، او يدون في قرطاس بل كان سبيله سبيل غيره من آثار علماء جبل عامل وادبائه في عصر المرحوم وقبله وبعده ، تحفظ تلك الآثار اياماً في ذاكرة صاحبها وبعض عارفيه ، ثم تذهب مع الزمن ، وقد احتفظت ذاكرة الخواص بالنزر القليل ، من بقايا تلك الكنوز ، فـكان لحسن الحظ من بينها ابيات للمترجم له ، وهي وإن كانت لا تتجاوز عدد الاصابع فانها اصدق شاهد على انه كان شاعراً مطبوعاً يرسل الشعر عفو البديهة مع طبيعته وفطرته لمناسبات الساعة التي هو فيها ، فيأتي في روائه وعذوبته وانسجامه كنفسه الطيبة في صفائها وسلامتها واعتدالها .

زار احد اخوانه ، ولما اراد الاوبة الى بلده منعه الغيث فقال :

قد يمنع الخير من خير ولا عجب   فالغيث مانعني عن وصل محبوبي
ني وددت لو ان الارض قدطويت   طي السجل او ان الريح مركوبي

حدثني الشيخ سليمان ظاهر قال : كان الشيخ محمد جالساً بين جماعة فاستغابوا انساناً فقال مرتجلاً :

نحن ما بينكم في حالة   قل ان نقضي منها عجباً
ان سكتنا مسنا الضر وإن   نحن لم نسكت اسأنا الأدبا

بهذه الموعظة الحسنة كان يدفع المنكر ، افهم جلساءه انهم يؤذون جليسهم ولا يحفظون صحبته بحـال احترمهم ام احتقرهم ، فانه معهم بين خطرين ، كل واحد اشد وقعاً من الاخر ، وفي الوقت نفسه اخجلهم من انفسهم ، حيث ابان لهم بلباقة ان عملهم القبيح يستدعيه ان يردعهم ويزجرهم ، ولكن منزلتهم لديه تأبى عليه ذلك ، او انه لا يريد ان يكون ثقيلاً عليهم .

وكأني بالشيخ محمد وقد وقع بصره على غر جهول، او على رجل اوقفه الطمع موقف الذل والخضوع ، فضاق به ، وامتلأت نفسه ، فتنفس الصعداء بهـذه الامنية :

من لي بطلعة ماجد ازداد منه ولا أمله
متآزرين على العلى متقارب شكلي وشكله

والفرق جد واسع بين هـذا الحكيم الذي ينظر إلى الناقص بعين الشفقة والعطف ، ويتمنى له التام والكمال ، ونحن الذين ننظر اليه بعين السخريـة والاستخفاف .

لقد كان الكمال رائد الشيخ محمد دبوق في كل شيء في افعاله وأقواله نثراً وشعراً ، وليس شعره سوى أداة تكشف عن حقيقة نفسه التي ارتفعت به إلى سماء العظمة والكمال .

إن للتربيه والبيئة تأثيرهمـا الفعال في تكوين الذات ، فميول الانسان ونزعاته تأتي نتيجة لهما في الغالب ، وبالأخص اذا لم يبلغ بعدُ مبلغ الرجال ، فانه لا يستطيع التغلب على عواملهما والتحرر من أغلالهما إلا من كانت له نفس راسخة الجذور والاركان ، زاخرة بالمواهب والملكات كنفس المرحوم الشيخ محمد دبوق التي لاتنفعل بالمؤثرات ولا تتلون بما يحيط به من الأعراض .

كان الشيخ محمد رفيعاً في تواضعه ، غنياً بكرمه الناطق بزهده وتصوفه كبيراً بنفسه وأخلاقه، وإذا اضفت هذه الخلال الى انطلاقه وعدم تزمته وخفة طبعه وعذوبة روحه علمت أن زهده كان لله لا للناس ، وان تواضعه كان طبعاً لا تطبعاً وان دينه عقيدة لا رياء .

كان عنده وهو في المدرسة مخدة حشوها من قشر البرغل ـالقمح المسلوقـ فق'' ؛ ا :

ورب مخدة زرقاء اضحى ... لها حشو يفوق الشوك لينا
جعلت رباطها البابير [1] كيما ... تزيد ملاحة وتقل شينا

هذه هي النفس المطمئنة الراضية المرضية عند الله والناس ، أعرضت عن الدنيا وملذاتها ، واطمأنت الى فضل الله ورحمته ، فاستبشرت هاشة باشة فرحة مرحة ، هذه هي علامة أهل الجنة . بشر وانطلاق مع تنزه عن المادة ، وتواضع صحيح . حدثني السيد محسن الامين زميل الشيخ محمد في دروس العربية والمنطق واصول الفقه لصاحب المعالم . قال : صحبته سنوات ودرسنا معاً في مدرسة عيثا وبنت جبيل فما سمعته يعيب انساناً قط حتى من يسيء اليه فانه لا يذكره بسوء بل يصبر ويغفر . كان في عهده شيخ يكتب أوراقاً ويخيط عليها جلداً ، ثم يبيعها لتكون حرزاً من العين و نيرهـا في زعمه ، وكان للشيخ محمد كتاب، له جلد جديد ، ففصله ذلك الجاني بسكينه، وألبسه الحجب التي يتجر بها ، ولما رأى الشيخ محمد كتابه عارياً ، وعرف صاحب الجناية فلم يزد على ان تمثل بقول القائل :

وقد يهلك الانسان كثرة ماله ... كما يذبح الطاووس من اجل ريشه

وكان اذا ذكر أحد امامه بسوء يخلق أجواء بلباقة عجيبة ، وكان أقدر خلق الله انسانا على تحويل الكلام عن مجراه · واخراج المتكلم من جوه الى غيره من حيث لا يدري ولا يشعر .

وكان يخدم زملاءه في الدرس ، وهو اكبر منهم سناً ، فلا يستنكف عن حمل الجرة على كتفه ينقل اليهم الماء ، ولا يرتفع عن خدمة انسان صغيراً كان ام كبيراً .

---

(1) البابير يشبه القصب ينبت في الحولة من أرض فلسطين يصنع العامليون منه الحصائر

أما كرمه فكان يجود بالشيء - وهو أحوج الناس اليه ، حدثني الشيخ احمد رضا صاحب متن اللغه . قال : وقف عليه سائل ولم يكن عنده مايرتضيه له ، فأعطاه ساعته الوحيدة . ووقفت عليه امرأة على رأسها خرقة باليــه ، و يس لديه ثمن منديل يعطيها اياه فقاسمها عمامته . واعطاه رجل صرة فيها دراهم ، وقبل ان يفتحها أتاه محتاج ، فناوله اياها كما هي وهو احوج اليهامنه.

لم يحرص الشيخ محمد على الدنيا كما حرصنا عليها نحن ، لأنا خفنـــا الفقر والعوز ، واطمأن هو الى كرم الله وجوده ، وتعاظمنا لنستر ما في نفوسنــا من ضعف ونقص ، وتواضع هو شكراً لله على ما اولاه مـــن نعمة الفضل والكمال .

هذا ما انتهى الي من اشعاره واخباره ، وهي على قلتها تدل على ان الشيخ محمد دبوق لم يكن من صنع البيئة ولا المدرسه ، وانما خلقه الله سبحانه من نوره ورحمته ليكون مثالا محسوساً لكل ما انزله على نبيه محمد (ص) من اركان الدين والايمان واحكام الشرع والاسلام . تذهب الى الصائغ ليصنع لك خاتماً على شكل خاص ، فتارة تعبر له عن ارادتك بالوصف والكلام ، وتارة تريه خاتماً وتقول له اريده كهذا ، والله عز وجل ابان الحق الى عباده بكلا الطريقين تأكيداً للحجة ، وابلاغاً في الاعذار والانـذار . أنزل الله الكتب السماوية فيها الأمر والنهي ، وخلق رجالا جعلهم نموذجاً لارادته القدسية ، وامر عباده ان يتخذوهم قدوة ومناراً والشيخ محمد دبوق من هـذا النموذج الالهي الذي يحتاج اليه الدين والشريعة ، ليتم به البيان ، وتكمل به الحجة وتبلغ اقصى درجاتها وغاياتها .

السيد حسن محمود الامين [1]

١٢٩٩ - ١٣٦٨ هجرية

ولد السيد حسن محمود الامين سنة ١٢٩٩ ، ودرس العلوم العربيـــة في مدرسة شقراء التي خرج منها عدد من الفضلاء والعلماء على منشئهـــا الرئيس الكبير السيد علي محمود الأمين أخي الفقيد ، هاجر الى النجف الاشرف سنة ١٣١٦ هجرية ، فانقطع الى العلم والتحصيل والبحث والدرس ، فـاوفى على الطلاب تحصيلا ونجابة ، وترقب له اساتذته وعارفوه مستقبلاً باهراً منـــذ البدء وعندما عزم على العودة الى جبل عامل رجح له اقطاب العـلم في النجف الاشرف المكث ثقة منهم ان ذاك يؤهله للرئاسة العامة ، درس كتب الفقه والاصول على الشيخ احمد كاشف الغطاء والشيخ علي باقر آل الجواهر ، أمـــا دروس الخارج - المحاضرات - فحضر الفقه على السيد كاظم صاحب العروة الوثقى ، والاصول على الشيخ ملا كاظم صاحب الكفاية ورفقاؤه درساً ومعشراً السيد شريف شرف الدين والشيخ عبد الكريم شراره .

وفي أيام دراسته جندت الحكومه العثمانية مـــن كان في سن العسكرية تجنيداً اجبارياً ، ولم تعفِ الطلاب الا من فاز منهـــم بالامتحان ، فصممت

---

(١) نشرت في العرفان . نيسان ١٩٤٩

الهيئة العلمية النجفية ان تهيء الطلاب تهيئة كاملة حتى اذا تمثلوا للممتحنين فاقت جامعتها على الجامعات والكليات كماً وكيفاً . فرأى العلماء ان يؤلفوا مجلساً للامتحان ليخلقوا في نفوس التلامذه بواعث على المثابرة والاجتهاد ، فوقع اختيارهم على ان يكون السيد هو السائل ، وعلى هذا تم الأمر ، فكان يجلس على الكرسي ويقف الطلاب بين يديه للاستجواب ، فيسأل كلا حسب صفه ومرتبته .

عاد الى جبل عامل سنة ١٣٣٠ هجرية ، فأقام في بلدته شقراء سنوات ، ثم انتقل الى خربة سلم بلد القديس الاكبر الشيخ محمد دبوق بطلب من أهلها ، فكان امد وجوده في البلاد ما يقرب من اربعين سنة ، كان فيها موضع ثقة الخاص والعام ، ومرجع العالم والجاهل ، وملاذ الكبير والصغير ، نافذ القول محترم الجانب لدى كافة الطبقات والهيئات ، فلم يكن عالماً فحسب بل من رؤساء العلماء يضمر له كل عالم المحبة الخالصة الى جانب التعظيم والاجلال ، لانه عنوان العلم والدين ، ومظهر عز العلماء والمسلمين وآية مجد البلاد وتاريخها الخالد .

وفي ايامه في خربة سلم تشرفت بمعرفته ، وسعدت بصحبته ، وتأكدت الالفة ما بيننا في أيامه الاخيرة التي قضاها في الغبيرة بمناسبة دائه الذي الزمه الفراش سنتين ، وعجز الاطباء عن استئصاله وتسكينه ، وكنا نقضي الساعات في مذاكرة العلم والادب وارسال النكات المهذبة ، وفي ذكريات النجف وعهدها الحبيب الى نفسه وقلبه ، وكنت أغلب الاحيان انا المبتدىء ، فان سكت خلق لي الاجواء ، ومهد لي سبيل القول ، وربما طرحت فرعاً فقهياً أو مادة اصولية ، فيسرح فيها النظر ويجيل الفكر واضعاً الاصول في مجراها ، والمقاييس في مواردها ، حتى يتصل بكل عميق ، ثم يقذف بالحجة ، فاذا هي الحكم العدل ، والقول الفصل .

كتبت مسألة فقهية حيث لم اجد لها ذكراً خاصاً في كتب الفقه ، ولما عرضتها عليه ، ورآها محلاً لمجاري الاصول المتعارضة ، ولم يرد فيها نص من آية أو رواية ، وضع بها رسالة خرجت آية من آيات علمه الجم ، ويتيمة من درر فكره الغواص ، وبعث بها الي واني عليها لحريص حرصي على الحياة [1] وله منظومة في الاجتهاد والتقليد ، وثانية في الرضاع جمعت بين الوضوح والاحاطة والايجاز مع الرقة والمتانة .

شعره

اما شعره فليس في المقام متسع للكلام عنه من شتى نواحيه ، فأكتفي بشواهد ثلاثة على ميزات ثلاث جمعها شعره الرائع ، رقة الشعور ، سلامة الطبع ، سداد المنطق .

واي شعر أرق وأعذب من قوله

يكلفني كتم الصبابة منصبي ويطفى الهوى في مهجتي فأبوح
حكت شجني ورق الحمام فكلما تغني أغني او تنوح أنوح

وتجد الطبع السليم في ابيات وصف بها الكهرباء نظمها في مرضه الذي اودى بحياته الغالية ومطلع الابيات .

---

(١) عنوان المسألة: ترافع الى الحاكم امرأة وبنتها ، قالت البنت: توفي أبي منذ عشرين سنة تاركاً عقاراً ، وكنت حينذاك طفلة رضيعة ، والآن طالبت أمي بالعقار قالت مات ابوك عنك وعن طفلة ثانية مني توفيت بعده فورثت نصيبها ، ولا علم لي بشيء لأنفي او اثبت فهل تطلب البينة من البنت على انحصار الارث بها خاصة ، نظير ما لو اودع عندك رجل مالا ثم مات فأتاك شخص يدعي أنه ابن الميت وأنه لا وارث سواه ، او تطلب البينة من الأم حيث تدعي حدوث سبب جديد ، او تطلب البينة منهما معاً لأنهما متداعيان بالنسبة الى النصف ، اذ لم يسبق علم بدخول المقدر في ملك احداهما في آن من الآنات ، نظير صاحبي اليد المتنازعين .

ان في الارض كالسماء نجوماً خلقت زينـــة لها ورجوما
فهي في السلم ضاحكات سروراً وهي في الحرب كالحات وجوماً

منح الشاعر الحياة للنور ، ثم رسم النور ضاحكا مبتهجاً ، وهل الحياة غير النور ؟ وهل النور غير الابتهاج والسرور ؟ وصور الظلام وجوهاً كالحة واجمة كوجوه الذين يصطنعون الوقار والعظمة

أما سداد المنطق فيظهر بأجلى معانيه في قوله:

يابلبل الدوح عصر الشيب عصر نهى وعهده عهد اصلاح وتجديد
عددت أيامي البيض التي سلفت مع الشبيبة من ايامي السود

يفتقر الاصلاح الى كمال الرشد وقـوة العقل ولا يقوى العقل إلا حيـــث تضعف الشهوات ، والشباب يندفع مع العاطفة التي تطغى على العقـل وتفقده ملكة الادراك ، فعصر الشيب هو عصر التجدد لأنه عهد العقل والنور ، أما أيام الشباب فهي الأيام السوداء لأنها ايام سورة العاطفة ، والنزاع الى الشهوات ، وهذا منطق الحق ، وقول الصدق ، وآخر ما قاله من الشعر ابيات مدح فيها بولس سلامه مقرظاً ملحمته الخالدة – يوم الغدير –

اخلاقه

هنا سر عظمته وجلاله ، وعنصر قداسته وكمـاله ، هنـــا مبعث سموه ومهابته ، وموضع حمده وتقديسه ، لقد كنت احسب قبل اتصالي بـــه ، ومعرفتي بدخيلته على حقيقتها أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة حتى وقفت على يمه الزاخر ، وطلع علي بدره الزاهر ، واذا بي ارى الناس تختلف اختلاف النور والظلام ، والموت والحياة ، والحق والباطل ، والعلم والجهل .

لقد تميز الفقيد عن الناس بأكثر صفاته السامية حتى كأنه نسيج وحده لا

يشبههم ولا يشبهونه بشيء الا أنه على صورهم ومسمى بأسمائهم .

وهنا يقف المتأمل موقف الحيرة والتساؤل : هل الناس كلهم من أصل واحد أو من أصول ؟ كلا . لا وزن لهذا الجسم الفاني الذي يشارك الانسان فيه الجماد والحشرات . فالسر كل السر في الارواح ، وليس السر في عظمته وتفوقه : انه غزير العلم والفضل ، قوي الدين والايمان ، شريف النسب ، رقيق الشعر ، سمح الكف ، مرهف الحس ، محب الاصلاح ، ليس هذا هو السر في عظمته . وان دلل الناس على الرفعة ببذل الجنيهات ، واخراج المجلدات ، والقاء الخطابات ، ان سر عظمته هو صدقه في صفاته هذه وسائر صفاته . صدقه في جميع أقواله وافعاله التي هي حقيقته الباطنة الظاهرة ، فهو كوكب دري يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ، كلامه نور ، وسكوته نور ، واقدامه نور ، واحجامه نور ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء .

فما رآه احد الا لمس منه الحب والاخلاص من غير ان يبدي له ذلك بقول او بفعل وشعر منه الانقطاع لله سبحانه ، والاعراض عن الدنيا وشهواتها من غير حنحنة ولا طنطنة ، وخشع لمهابته العلمية والدينية خشوعاً يمتزج بحلاوة الراحة والامان ، بينما ترى الكثيرين يحاولون الظهور بمظهر الاخلاص بشتى الطرق والاساليب يقررون بأساليبهم المزيفة التمويه الكاذب والرياء العاري ، واذا اعلنوا عن علمهم اثبتوا جهلهم وتعسفهم .

وأبلغ مظهر فيه – وكل مظاهره بالغة الحجة لجلالة قدره ، وعظمة نفسه – هو حبه الخير والصالح العام ، فما حدث حادث يمس الدين او القومية الا رفع صوته عالياً لنصرة العدالة ، واعلاء كلمة الحق ، فهو وحده الذي يصدق القول فيه : انه صوت الدين ، وصيحة الوطن ، ولسان الوجدان .

فيوم ثار العرب في فلسطين على الانكليز واليهود سنة ١٩٣٦ اذاع على الناس بياناً دعا فيه الى الجهاد والنفير العام ، وحذر من عاقبة الاهمال

والتسويف ، وبالامس القريب وهو على فراش الموت ابرق لفخامة الرئيس برقية طلب اليه فيها رعاية لاجئي الجنوب والاهتمام بمستقبلهم نشرتها صحف بيروت ، ورددتها الاندية والمجتمعات ، وكان لها في النفوس ابلغ الاثر واحسن الوقع . وانشأ قصيدة عامرة حث بها رؤساء العرب على توحيد العدة والعدد لمجابهة اسرائيل ودولة الاباطيل .

واعجب ما يعجب منه الانسان انصافه لذوي الفضيلة والمواهب ، فمن العلماء من لا يذكر متعمما بخير ، ومنهم مـن يثني ثناء يحسبه الناس اضطرابا وافراطاً ، وما هو بالاضطراب ولا بالافراط . وانما هو اريحية الاديب الذي يستجيب لغريزة حب الفضل ، ويتأثر بالجمال فيصوره برقة شعوره ، وجمـال نفسه ، فتخرج الصورة وهي جمال المصوِّر ، لا حقيقة المصوَّر .

اما صاحبنا فهو العدل الوسط بين هذا وذاك ، لا يذكر احد بسوء ، وان كان سيئات كله ، فان سئل ودعت الحاجة اكتفى بالايمـاء الخفي ، ولكنه لا يـدافع . ولا يشترك . اذا ذكر المسيء عنده بابشع الصفات وأشنعها مـا دام يعتقد انه من المجرمين ، ولا شيء ادل من ذلك عـلى كراهيته للمواربـة والتصنع ، لا يدافع ليقال : لا يجرأ احد في مجلسه على الكـلام الا بخير ولا يشترك لانه يربأ بنفسه الكبيرة عن ذكر المكروه ، وينزل كل واحد من اهـل الدين والفضل في المـكان الذي أنزله فيه الله ، ويذكره بما هو اهله من غـير بخس ولا محاباة . يذكره في المغيب كما يذكره في المحضر ، ويحترمه امام الناس – ان كان من ذوي الاحترام – اكثر من احترامه له بينه وبينه ، فشخصيته واحدة سراً وعلانية ، ولونه واحد ظاهره وباطنه .

فما التمس في حياته كلها مغنما يأباه الإباء . ولا تقرب مـن زعيم طمعاً بماله وجاهه ، ولا احرق نفسه بنار الاحزاب . ولا نصبها بوقاً لاهل الاباطيل والاضاليل فـكان يدعها سماوية تجري على قدر ، وكثيراً ما كانت تبلغ بـه

الحاجة مبلغ العسر والضيق ، فيصبر ويتحمل غير مشعر بذلك احـــداً .
حدثني يوماً : أنه في احدى السنوات اشتد عليه الامر حتى احتاج اهل بيته الى الدقيق ، فأرسل سجادة عجمية الى سوق بنت جبيل مع احد مشايخ آل مروه فبيعت بابخس الاثمان سداً للعوز .

وسأتخذ من لطفه وعطفه علي شاهداً للقاريء على وفائه والفته ، فلست اعرف احداً اشد اتصالاً به مني ، وعلى الرغم من ذلك ما ترك العناية بي في ساعة ما اتـكالا على مـا بيني وبينـه مع علمه بأني لا اطلب منه اي احترام او تقدير لاني من بعض ولده ، وكان يكرر علي القول : لا سمير لي سواك ، فكنت اذهب اليه صباحاً ومساء ، ليلا ونهاراً ، واذا تأخرت عنه كتب الي يسألني المبادرة مستفهما عن سبب التأخير ، ومهما نسيت فلست بناس جمـلة كتبها الي في يوم اشتد فيه البرد والمطر ، فاحتجزت في بيتي طيلة النهار حتى بلغت الساعة الثامنة والنصف مساء فما راعني الا طرق البـــاب فتحته واذا بخادمة كأنها خارجة من بركة ماء ، فانخلع قلبي لمرآها فناولتني ورقة فيها : أخي ما منعك عني ، فأسرعت اليه ولا ارض ولا سماء الا الماء ، وتأخرت عنه مرة فكتب الى :

أخوان هذا عاجز عن وصل من يهوى وهذا مستطيع قادر

واقبلت عليه وهو في المستشفى فأنشد

ان الوفاء بجسم والفضل في شخص الجواد

ولئن كانت ايامي معه ايام سعادة وهناء فقد اضحت مبعث الالم والحزن ، ومثار اللوعة والشجن ، واستحال ذاك الشهد والبلسم الى سم وعلقم

لك عندي ما عشت يا ابن رسول الله حزن يفي بحق ودادي
ناظر بالدمـوع غـير بخيـل وحشيّ بالسلو غير جواد



الشيخ محمود عباس [1]

مهما تعددت مقاييس الرجال ، وتطورت مفاهيمها فـان المقيـاس الذي يقاس به عالم الدين ثابت لا يتغير بتغيير الاحوال والملابسات ، ولا يختلف باختلاف الازمنة والامكنة .. فهو من الحقائق الثابتة التي لا تقبل التقييد ، ولا التقليم والتطعيم .. انه « التقوى والتفقه في الدين » ولا شيء وراء ذلك .

اما الفصاحة والبلاغة ، اما الكتابة والخطابة فهي من المحسنات الكمالية لعلماء الدين ، ولا من الشروط الاساسية ، فمن عرف واتقى فهو العالم حقاً ، اما من اتقى وجهل الاحكام ، او وعاها وخرج عـلى مبـدأ التقوى والصلاح فلا تجوز الثقة به ، كعالم ديني ، وان كان كاتباً مبدعاً ، وخطيباً مصقعاً .

والتفقه في الدين اشرف العلوم اطلاقاً ، اما التقوى فهي منبع الفضائـل بكاملها ، ومصدرها الاول بدون استثناء . . ومن هنا كان رجل الدين محـل التقديس والتكريم اكثر من اي عالم في العلوم الدنيويـة . . واذا كان التفقه مع التقوى مقياس الافضلية والتقديم ، فهل يقدم الافقه والاعلم على العـالم

---

(١) نشرت في العرفان آب ٦٢ .

الاتقى والاورع ، او يقدم هذا على ذاك ؟. فيه قولان ، ونحن دائما مع الذين يقدمون الاتقى [1] . . وعلى هـذا الاساس يبتني حديثنـا وتقديسنا للمرحوم الشيخ محمود عباس .

كان هذا الشيخ عالماً في العلوم العربية ، وعارفاً بالاحكام الشرعية ، لكن لا عن ادلتها التفصيلية ، وفي اصطلاح النجفيين لم يبلغ درجـة الاجتهـاد، ولم يدعه هو لنفسه ، ولكنه متفوق في الفهـم والذكاء ، وكان يقرض الشعر ، وينظم القصائد الطوال واكثرها في الزهد والتصوف ، ومـدح اهـل البيت (ع) ، اما في التقوى والاخلاص ، والنصح لله وعباده ، امـا في الزهـد والتواضع ، ونشر الاحكام ، وتربية النشء على الدين ، والخلق الكريم فقـد كان النموذج الصالح ، والمثل الكامل .

ولد هذا الشيخ الصالح سنة ١٨٦٧ في قرية من قرى جبل عامل ، تدعى « عثرون » قريبة من بنت جبيل ، وقد عرف اهل هذه القرية بالذكاء وصفاء الفطرة ، وتوفي سنة ١٩٣٥ في برج البراجنة ، وعاش حياته كلهـا فقيراً متقشفاً ، لم يذق حلاوة الدنيا ونعيمها ، ولم يملك منها كثيراً ولا قليلا سوى مكتبة باعها اولاده من بعده واقتسموا ثمنها ، وهي كل مـا ترك من ميراث .

---

(١) المفروض انه لا دليل من الكتاب والسنة على تقديم الافضل ، وايضاً المفروض ان الحكم الواقعي مجهول ، وجائز ان يكون مع الفاضل ، وان يكون مع الافضل ، ولو علمنا انه في جانب احدهما دون الآخر لتعين ، حتى ولو كان مفضولا ، وايضاً المفروض ان كلا من المجتهدين قد سلك طريقاً معتبراً في الشريعة يعذر معه عند الله ، والنتيجة المنطقية لكل ذلك ان يتخير المقلد في الرجوع الى الفاضل او الافضل ، وان تقديم الافضل يكون ترجيحا بلا مرجح والقول بان رأي الافضل اقرب الى الواقع مجرد استحسان ، حيث لا واسطة بين الواقع وعـدم الواقع ، كي يقال : هذا اقرب وذاك ابعد . اما دعوى بناء العقلاء على تعيين الافضل فلا تتم لو كان الفاضل اتقى من الافضل . ولا اقل من الشك ، فيختصر على القدر المتيقن ، كما هـو الشأن في الادلة اللبيه .

وكان يسكن بالاجار في غرفة واحدة هو وزوجته واولاده ، كأي عامل هاجر الى بيروت طلباً للرغيف ، وقد تسنى له ، لو اراد ، ان يبني اكثر من دار ، ويملك اكثر من عقار ، ولكنه طلب ما هو اعلى وارضى لله سبحانه ، فأخذ يطوف في البيوت والحوانيت والقرى لا يكدي ويستجدي، ولكن ليعلم ويبشر بالحقائق الدينية. . فلم ينتظر الناس ان يقصدوه، ويسألوه، فكان يذهب بنفسه يطرق الأبواب ويدخل البيوت، يعلم النساء والرجال، وكثيراً ما كان يذهب إلى بعض التجار والكسبة ي حوانيتهم يلقي عليهم دروساً في أصول الدين وفروعه.

اخبرني الحاج احمد بعلبكي ، وهو الثقة ، قال :

كان الشيخ محمود عباس يقصدني الى محل عملي في التجارة ، ويعلمني دروساً في الرسالة العملية ، وقال : ما عرفنا اثره البالغ في التعليم ونشر الدين ، الا بعد موته ، حيث تبين ان فوائـده الدينية ، وصلاتـه الارشادية امتدت الى اوساط ما كنا نظن ان احداً من رجال الدين يصل اليها ، وما كانت تقف في طريقه العقبات والاعتبارات ، لانه كان جـد حريص على ان ينتشر الدين في كل مكان .

وكان اذا جـاء فصل الصيف ، واقفلت المدارس ابوابها يجمع التلاميـذ ، ويذهب بهم الى الرمل والبحر ، او اي مكان بعيد عن الضوضاء ، ويلقي عليهم دروساً في الدين ومباديء اللغة ، وكان تلاميذه يحبونه ويحترمونه اكثر مـن آبائهم ، وينتظرون وقت الدرس بفارغ الصبر ، هذا ، ولم ينس ان يزور بـين الحين والحين بعض القرى في الجنوب وكسروان وبعلبك يفقه اهلها بالدين ، ويرشدهم الى الحق ويحذرهم من الحرام والآثام ، لا يسألهم جزاء ولا شكوراً وقد اهتدى عن طريقه خلق كثير .

وصادف ،وهو في بعض القرى ان جاءه فلاح بثور، فقال له : ما هذا؟.

قال : هو حق لله اتيتك به .. واخذه الشيخ ، وذهب قاصداً قرية مجاورة ، وفي الطريق رأى رجلا يحرث على بقرة وحمار ، فسأله عن السبب ، لأن المألوف في الحرث ان يكون على البقر ، فقال . لا املك غيرهما ، فأعطاه الثور ومضى في سبيله .

واخبرني الشيخ خليل هاشم المعروف بالصدق والامانة ، قال : في سنة ١٣٤١ هـ حججت انا والشيخ محمود عباس ، فأعطته امرأة خمس ليرات ذهباً – ونحن في مكة – فأعطاها لسيد عراقي ، أما قصة ولده البكر فيعرفها ويتحدث عنها المئات ، وملخصها ان سائقاً مسيحياً من « حارة حريك » دهس بسيارته ولده الأكبر خطأ ، فمات لساعته ، وقبضت الحكومة على السائق وأودعته في السجن، ولما علم الشيخ الوالد قال: مسكين هذا السائق.. انه لم يتعمد الاساءة الينا ، فكيف يساء اليه ، واسقط حقه عنه .. وقدم السائق للشيخ مبلغاً كبيراً من المال ، فرفض ، وقال : لا آكل لحم ولدي .

هذا ، وهو يعيش ليومه ، ومن يده لفمه ، وقد يستدين ثمن وجبة الطعام له ولأهله ، وحدثني اكثر من واحد انه ربما حصل على مصروف يومه بكل جهد ، فاذا رأى محتاجاً آثره ، واعطاه ما كان قد تيسر له ، وبقي على باب الله الكريم واثقاً بأفضاله واحسانه ، وحدثت له اشياء مماثلة لا يتسع لها هذا المقال .

بهذا الاخلاص ، وهذه الاخلاق الاسلامية النبيلة في العالم والقائد رجع الناس الى الدين والفضائل ، وانتهوا عن الجرائم والرذائل ، وقد كانت الهداية الالهية وما زالت تعمل عملها في الناس عن طريق المتقين والمخلصين .

مضى على وفاة هذا الشيخ الجليل المصلح ٢٧ عاما ، ولم يذكره احد في كتاب او صحيفة وتحدث عنه عارفوه لبعض المناسبات ، وحين يقارنون بين

من مضى ومن بقى من رجال الدين ، وبعد قليل ينطوي اسمه مع الايام ، وتمحى صورته من الاذهان .. وكم انجبت جبل عامل من امثاله ، ثم انطووا في عالم النسيان ، مع ان آثارهم في نفوس ابناء هذا الجبل ما زالت تنمو ، وتعطي اطيب الثمار ، لقد اهمل التاريخ ذكرهم لا لشيء الا لانهم كانوا يعملون بصمت مخلصين لله وحده لا يبتغون شهرة ولا ثناء .

وفي النهاية هل يستعيد القارىء الكريم في ذهنه بعض الصور لمن عرف من الشيوخ ، ويقارن بينهم وبين هذا الشيخ القديس في السلوك ؟ والله سبحانه المسؤول ان يرينا في هذه الوجوه الجديدة التي تقاطرت علينا من النجف الاشرف وجهاً كريماً كالشيخ محمود عباس .

آيات من اخلاق العامليين (١)

يحدثنا الشيوخ أحاديث يروون بعضها عن آبائهم ، وبعضهـــا شاهدوا وقائعها بأنفسهم ، تحمل تلك الاحاديث في طياتها صور المفاداة الخالصة التي نبتت على هذا الجبل القاحل – جبل عامل – الذي لو تأخر عنه غيث السماء قليلاً مات اهله جوعاً وعطشاً .

يحدثنا الشيوخ بين حين وحين عن قداسة الآباء والاجداد ، وعما أتوابـه من تضحيات لو نسبت الى الانبياء المرسلين لكتبت في سيرتهم بأحرف مـن نور ، ولاتخذ منها أدلة وبراهين على انهم فوق الناس أجمعين ، وانهم ليسوا من دنيانا ، ولا نحن من دنياهم في شيء .

وما كان لعاقل ان يرتاب في صحة تلك الاحاديث ، وصدق رواتهـا بعد ان تجاوزت حدّ التواتر ، وبلغت مرتبة الجزم واليقين .

ويشهد الله بأني ما سمعت منقبةمن تلك الفضائل والأمثال الا ذابت نفسي حسرة على عدم تدوينها وتلظت اسى خوفاً من ضياعهاتيك الكنوز الدفينة،

---

(١) نشرت في العرفان . ايار ١٩٤٧

ووددت ان يتاح لها كاتب يخرجها للناس في سفر مستقل يكون آية ناطقة بعظمة العامليين وثروتهم الروحية التي يضاهون بهـا الامم في شرق الأرض وغربها ، وأداة تربطنا بماضينا الزاهر ، وتعيننا على فهم انفسنا وتربيتها تربية قومية صحيحة .

وقد حاولت تحقيق هذه الأمنية وباشرت في العمل ، وهذي احدى الصفحات التي اثبت فيها طائفة من تلك الآيات البينات ، والله تعالى المسؤول ان يوفقني لاخراجها – على حدة – في المستقبل القريب .

كان في النجف الاشرف رجل من الحجاز يطلب العلم يدعى الشيخ علي الفرعي في عهد المقدس الشيخ علي مغنية [1] وكان قريناً له في التقى والفضل، ورفيقاً له في الدرس والبحث فقضيا شطراً من الدهر متلازمين جادين في تحصيل العلم مجاهدين في سبيله حتى بلغا منه الذروة العليا .

وقد أصابهما من الفقر والعوز ما يصيب كل عالم وطالب ومؤمن ومتعمم هاجر الى النجف ودرس في النجف ، ودخل الى النجف ، ومن الصدف الغريبة ان الفقر كان – وما يزال ولن يزال – حليفاً لأهل العفاف والفضل ، ووصفاً لازماً لذوي الاخلاص والايمان ، يألف مساكنهم ولا يبرحها حتى يجليهم عنها بالموت ، وكان اساتذتنا اذا تذمر احدنا من الحاجة وشكا من الذين يطيبون نفسه بحديث قدسي : « جعلت العلم في الجوع ، والناس يطلبونه في الشبع » وكنا ذات يوم في حقل من الشيوخ والطلاب ، فدخلنا في فنون من الاحاديث ، فانجر الكلام الى النجف وما تحويه فقال المرحوم اخي الشيخ عبد الكريم : وماذا في النجف غير المشايخ والفقر ، فاعترضه أحد الظرفاء وقال : لا يا مولانا ليس هناك اثنان فالمشايخ هم الفقر ، والفقر

(١) هو والد الشيخ حسين مغنية الشهير .

هو المشايخ ! وكلما كان الانسان عريقاً في المشيخة متقوماً في التحصيل والفضل كان نصيبه من العوز أكبر وأوفر .

لذا بلغت حاجة العلمين الكبيرين العاملي والمدني مبلغها من العلم والايمان، وانسدت دونها السبل ، وضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وكان الشيخ الحجازي يرقب من ذويه وارحامه ان يرسلوا له نفقات السفر الى موطنه حيث انتهى من دراسته ، وحاز الشهادة الكبرى بالاجتهاد المطلق ، فتأخروا عليه فأرسل اليهم يحثهم ويستنجد بهم ، وصادف في هذا الحين الذي ينتظر فيه الشيخ الجواب من قومه وصول خمسين ليرة ذهباً الى المقدس الشيخ علي مغنية من ذويه في جبل عامل بعثوا بها اليه لوفاء ديونه ونفقات سفره الى بلاده ، ولما قبضها احب ان يؤثر بها صاحبه الحجازي ، ويقدمه على نفسه وولده ، ولم يخشى الا شيئاً واحداً وهو ان يرفضها الشيخ علي الفرعي لعلمه بأن صاحبها الشيخ علي مغنية احوج اليها منه ، فرأى ان « يحتال » للأمر ، فأخذ المال وذهب الى رفيقه وقال له : بشراك فقد جاء الفرج ، وتيسر ما عسر من امرك ، أتاك المال من الحجاز وقبضته لك ، وهذا هو خمسون ليرة ذهباً ، فطابت نفس الشيخ وانشرح صدره ، وتسلم المال ويده ترتعش سروراً ، ووجهه يطفح بشراً ، فوفى ديونه وقضى حوائجه وأبتاع أدوات سفره ، وودع رفيقه عائداً الى بلاده يحدوه الشوق ، ويهزه الطرب اذ ترك النجف موفور الكرامة عالي الرأس ، ليس لدائن عليه حق ، ولا لغريم درهم ، ولما وصل الشيخ الى الحجاز علم كل شيء وفهم وجه « الحيلة » ومرماها ، وبأي شيء يشكر هذه النعمة التي انقذته من التهلكة ، لم ير خيراً من الاسراع بإرجاع المال الى صاحبه مشفوعاً بكتاب يعترف فيه بالفضل والجميل ، وقبل ان يباشر بتهيئة المال تسلم كتاباً من صاحبه الشيخ علي مغنية يقول فيه بعد التهنئة بوصوله سالماً : ايها الاخ الجليل اياك ان تفكر في اعادة المال ، فانه من الله وفي سبيله ذهب ، هو لك بأجمعه ، لا أريد منك وفاء ولا جزاء .

وكأني بالشيخ وقد دمعت عيناه اكباراً لهذا الايثار الخالص والمفاداة النادرة ! ماذا يصنع الشيخ الحجازي ؟ بينا يرى نفسه عاجزاً عن شكر المنعم وهو يظن انه يقبل المال منه واذا به يضيف الى الاولى نعمة أجل واعظم ! ماذا يصنع ؟ وبأي شيء يكافيء الشيخ علي مغنية ؟ ولم يكن المال من اهدافه ولا المادة من غاياته ، ولا هو منها في شيء فقد تعالت نفسه عن العالم السفلي الى الملكوت الاعلى حيث لا يصعد الا نبي مرسل او ملك مقرب ، فمن اراد مكافأة الشيخ علي مغنية فليعمل له في هذا السبيل سبيل الروح والقداسة لا سبيل المادة والشهوات ، إذن وجد الشيخ علي الفرعي الطريق الذي يمكن ان يؤدي به بعض ما عليه من حق ، فآلى على نفسه ان يحج الى بيت الله عن الشيخ علي مغنية في كل عام ما دام حياً ، ووفى بعهده وبقي مثابراً على ذلك حتى وافته المنية .

قد يفعل الانسان الخير رغبة في مرضاة الله ، وطمعاً في السعادة بعد هذه الحياة وفراراً من العقاب والعذاب ، وقد يفعل الخير لانه مفطور على الخير ، فيصدر عنه من تلقاء نفسه لم يدفعه اليه عامل خارجي من رغبة في ثواب او رهبة من عقاب .

لم يقدم الشيخ علي مغنية على تلك السماحة والمفاداة إلا بدافع نفسه وخلوص ضميره ، ولم يستمد الخير والصلاح الا من ينبوعه الفياض .

رجل منقطع عن ارحامه وأهله ، منقطع عن موارده وبلده لا يملك من دنياه شيئاً سوى خمسين ليرة ذهباً تعادل يومذاك الفاً او تزيد ، هو احوج اليها ممن كان ويكون يؤثر بها رجلاً لن يراه بعد اليوم ، وليس له فيه ولا في قومه أية غاية او مأرب .

ان هذه التضحية لا تفسر بالدين والخوف من الله ، وانما تفسر بالانطباع

على الخير ، والفطرة على المعروف ، ولو انتمى صاحب هـــذه الجبلة الى دين يحرم الاحسان لاقدم عليه من دون مبالاة .

هؤلاء ارباب النفوس المجرمة ينتمون الى شرائع تحرم الموبقات ومع ذلـك يقدمون على ارتـكابها ، ان فعل الخير امتثالا لأمر الله حسن ، وفعله بدافـع الفطرة حسن ، ولكن حسن الاول صناعي ،وحسن الثاني طبيعي ذاتي كإيثار القديس الاكبر الشيخ علي مغنية ومفاداته .

الشيخ محمد علي نعمة (١)

لو وقف موقفي هذا رجل ، وأبّن الفقيد بقوله : « مات الفقيد مسلماً » لاختطفته الابصار من كل جهة ، وتناولته ألسنة حداد . أمثل الشيخ محمد علي نعمة في علمه ودينه ، وخلقه ومكانته يقال بأنه مسلم وكفى ؟..

مهلا مهلا .. ليس المسلم من قال : « لا اله الا الله محمد رسول الله » بلسانه ، وعبد الف شيطان وشيطان بأفعاله .. ليس المسلم من اذا سمع بسيئة لأخيه المسلم طار بها فرحاً ، وأشاع وأذاع ، واذا رأى حسنة اسود وجهه وهو كظيم ، ودفنها او اولها الى سيئات .

ان اسلام الشيخ محمد علي نعمة لم يسجل في دائرة الاحصاء والهوية فحسب ، ان هذا الاسلام يسجله عبد يخطىء ويزور ويرتشي .ان اسلام الفقيد مسجل في اللوح المحفوظ ، وفي كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون » .

وقد اتقى الله الشيخ محمد علي نعمة من بداية حياته الى نهايتها ، فعاش

---

(١) توفي في ٢ ايار سنة ١٩٦٢ وتليت هذه الكلمة في الاسبوع السابع ونشرت في جريدة جبل عامل ١٥ حزيران ١٩٦٢

مسلماً حقاً ، ومات مسلماً حقاً .. عاش اربعين عاماً في هذا البلد في مجتمعنا هذا الذي تتنازعه التيارات السياسية ، والاهواء الحزبية والاغراءات المادية ولم يتأثر بسياسة ، ولا بحزب ، ولا بمادة ولا بزعيم ولا مختار ، لأنه مسلم في اللوح المحفوظ وفي كتاب الله ، فتأثر بالله وحده ؛ واتخذه محوراً تدور عليه جميع أقواله وافعاله .

عاش الفقيد مع الناس بجسمه ، ومع الله بروحه ، حتى كأنه لا علاقة له بأحد من هذا المجتمع الا اذا كانت العلاقة وسيلة الى الله لا غاية في نفسها .. لقد صمد الفقيد بروحه الطاهر وايمانه القوي ، ومقاصده الخيرية ، صمد لتيارات هذا العصر الذي طغت فيه المادة على كل شيء على الدين والاخلاق، على الكبير والصغير الا على الفقيد وامثاله من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم لزعيم اثيم ، ولا لشيطان رجيم قال الشيطان : « ولا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » وقال الله سبحانه : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » ، وحاشا الفقيد ، حاشا علماء اهل البيت ان يبيعوا دينهم للشيطان ، كيف ؟ وهل يتبع اهل الدين من لا دين له ؟!

ينظر الشيطان الى الانسان ، يبحث فيه عن نقطة الضعف ، فان وجدها في حبه للمال دفعه الى التماسه عند الاشرار ، وان وجدها في حبه للشهرة دفعه الى التماسها في الدس والكيد للاشراف ، وفي تفريق الكلمة ، وخلق الشيع والاحزاب ، ليتزعم طرفاً من الاطراف اشباعاً لشهوته الجامحة .

اما الفقيد فقد كانت له حصانة من دينه ، ومناعة من علمه تنأى به عن الانانية وحقدها وعن الاهواء وعبادها ، وترتفع بروحه الطاهر الى الملكوت الاعلى ، حيث لا حقد يصرف عن طاعة الله ، ولا حسد يبعث على معصية الله حيث لا نفاق ، ولا رياء ، ولا شيء الا الاخلاص لله ومحبة الناس اجمعين ،

وهل الحقد والحسد الا صورة يتجسم فيها الشيطان على حقيقته ؟! وهل محبة الناس الا انعكاس لروح الله وعظمته ؟!.

واناشدكم ايها السادة : هل تعرفون احداً حسده الشيخ محمد علي نعمة ، او كاد له ، او دس عليه ؟!. هل تعرفون احداً شكى منه ، او ضاق به ، او سخط عليه ؟!. هل تعرفون عالماً محترماً تثق به جميع الهيئات والفئات كالشيخ محمد علي نعمة الذي عاش بين قومه اربعين عاماً عيش الفقراء والمساكين في بيت دون عشرات البيوت في بلده هذا ، وفوق اثاثه كل اثاث ؟!. هل تعرفون عالماً غير الفقيد عاش في جبل عامل اربعين عاماً يسكن مع زوجته واولاده الكبار والصغار الذكور والاناث في غرفة واحدة ، والثانية للضيوف والزائرين ، وحين عاد ولده الاكبر عالماً من العراق اضطر الى السكن وعائلته واولاده مع ابيه واخوته في هذا البيت المتواضع امداً غير قصير الى ان اذن الله واستدان لبناء دار له ولاهله ؟!. ولا اغالي اذا قلت ان حياة الفقيد في جبل عامل اشبه بحياة الطالب في النجف يوم كنا وكان ، حيث البؤس والحرمان .

ولماذا عاش الشيخ فقيراً ، ومات فقيراً ؟ عاش فقيراً ومات فقيراً ، لانه مسلم حقاً يأبى عليه اسلامه ان يستغل ثقة الناس به لمنافعه ومنافع اولاده .

ومن اجل زهده وعفته وقناعته كان الفقر نقصاً في غيره ، وكمالا فيه ، تماماً كما في الانبياء والاوصياء الذين كانوا يبيتون على الطوى ، وهم يملكون الدنيا .. لقد كان الفقيد كبيراً في عمله ، ولكن سر عظمته يكمن في صفاء قلبه ، وطهارة نفسه ؛ وفي احسانه الى الناس ، والكف عن الأساءة اليهم وفي عمله من اجل الدين ، وتعليم الحلال والحرام واصلاح ذات البين ، يكمن في مطابقة ارادته لارادة الله سبحانه .. واقسم ان هذا الجبل لولا الفقيد وامثاله من اسرته وغير اسرته كالشهيدين ومن اليهما لم يكن فيه للدين عين ولا اثر .

واي شيء اصلح واجدى في خدمة الدين واثارة طريقه ، وعلو شأنه من تربية العلماء الهداة .. لقد ذهب الفقيد الى ربه بعد ان ترك للاسلام والمسلمين نجليه العلامتين الشيخ عبد الله والشيخ عبد الحسين ، فانهما امتداد لعلمه وعمله الصالح .. فلقد بلوت الأخ الشيخ عبد الله ، وعرفت سره وعلانيته فوجدت فيه الصدق والوفاء والعلم الغزير والرأي الثاقب ، والجهد المتواصل في خدمة الدين والعلم ، وهل للاخلاق من مصدر غير الوفاء ؟ ! وهل للدين من معنى غير الصدق ؟! اما العلم والعمل له فتنطق بهما احكامة العادلة ،وسيرته الطيبة ، وآثاره الخالدة ، من كتاب « سياسة الخلفاء الراشدين » الى « الادب في ظل التشيع » الى « هشام بن الحكم » الى السفر اليتيم الخالد « فلاسفة الشيعة » الذي سيخرج من المطبعة قريباً ان شاء الله .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وحفظ اولاده الثلاثة ، والهمنا واياهم الصبر أنه ارحم الراحمين .

حول الدراسة في النجف الاشرف [1]

باب الكلام

قرأت في مجلة العربي عدد ١١ - ١٦ كلمة بعنوان : «الدراسة العلمية في النجف الاشرف» للاستاذ عبد الرزاق الهلالي ، تناول فيها - فيما تناول - طريقة التدريس في النجف . وتمنيت لو وفق الكاتب الى مدى ابعد في العرض والتصوير ، ولعل له عذراً ، لان المقام لا يتسع للمزيد ، او لان الموضوع لم يتضح في ذهنه كل الوضوح .

ومهما يكن فانه مأجور ومشكور على قصده وجهده ، بخاصة انه فتح باب الكلام عن هذا الموضوع الهام في مجلة تحتل مكاناً مرموقاً في العالم العربي والاسلامي .

جامعة النجف بحاجة الى تعريف

ان جامعة النجف بأمس الحاجة الى من يعرف بها ، انها مجهولة بتأثيرها واعمالها ، كما هي مجهولة بكنهها وحقيقتها ، حتى الكثير من الذين يزعمون

---

(١) نشرت بالعرفان عدد آذار سنة ١٩٦٢ .

معرفة النجف لا يعرفونها الا بالاسم والمكان وحتى اكثر الذين تخرجوا منها وحملوا شهاداتها لا يعرفون الا وجهاً او وجهين من وجوهها الكثيره المتنوعة، لانهم يجهلون غيرها من الجامعات ، وبديهي ان المعرفة بالشيء لا تتم الا بعد ان تقارنه بنظائره ونقائضه . واعترف اني قبل أن اكتب الفقه على مذاهب السنة والشيعة لم تكن معرفتي به من ناحية القوة والضعف كما هي الآن .

طريقة التدريس

وطريقة التدريس في النَجف لا تعرف على حقيقتها الا اذا عرفنا ما هي رسالة النجف ؟ ان النجف تعتقد انها تحمل في عنقها امانة سماوية ، وان الله عز وجل قد اقامها حارساً ومناصراً ومدافعاً عن هذه الامانة ، وهي الدين وشريعة سيد المرسلين ، فمن دخل جامعة النجف يجب ان يدخلها بهذا القصد ، ومن تخرج منها يجب ان يعمل ويتجه الى هذا القصد ، والا كان تاجراً لا عالماً ، ومنافقاً لا مؤمناً ، ومن هنا كان التدريس في النجف بالمجان فلا الاستاذ يقبض اجراً ولا التلميذ يتكلف شيئاً تنزيهاً للدين عن الكسب والاتجار ، وعن أية وسيلة تجر منفعة دنيوية .

وهذه الغاية غاية الدفاع عن الدين تستدعي بطبعها التوسع في العلوم والمعارف ، بخاصه اللغة وأساليبها ، والحجج وشروطها ، كما تستدعي الاطلاع على اقوال الآخرين وآرائهم ، والمراس في الجدل والنقاش ، ومن أجل هذا يعتمد الاستاذ في النجف – اذا أراد أن يبحث قضيه من القضايا – الى عرض الفكرة على تلاميذه بأسلوب الاستفهام والتساؤل ، ثم يذكر كل ما يمكن ان يقال حولها من الآراء المتناقضة المتضاربة ، ويبذل الجهد كله لايراد الاعتراضات على ما يراه ويختاره ، ثم يفندها واحداً واحداً بالمنطق والحجة القاطعة بحيث لا يدع مجالا للاحتمال والتشكك بالحق والصواب ، فيخرج التلميذ من عنده

وهو واثق كل الثقة بما يؤمن ويعتقد ، ومسلحاً بأقوى الحجج وافضلها فاذا ما اعترض على عقيدته معترض او نال منها متحذلق جابهه بمنطق العقل ، وعرفه مكان الخطأ في قوله ، وسد عليه جميع السبل الا سبيل الاستسلام والاعتراف بالجهل ، وكان من نتيجة هذه الطريقة في التدريس أن اتسعت مدارك الطالب الشغول الدؤوب ، ونما عقله وذكاؤه ، وتأهل لان يتفهم بنفسه علوماً لم يدرسها في جامعة اذا هو اولاها العناية والاهتمام ، وان يحاكم ما يعرض له وعليه من الافكار والاقوال ، وهذا هو الفارق الخطير بين جامعة النجف وسائر الجامعات .

مثال على طريقة التدريس

واليك مثالا واحداً على طريقة التدريس في النجف :

اذا اراد الاستاذ ان يثبت كروية الارض تساءل : هل هي كروية او مسطحة ؟ ثم يقول ذهب القدماء الى انها مسطحة، وقال الجدد : انها كروية، واستدلوا بأن الانسان اذا سار من نقطة معينة وواصل السير في خط مستقيم ينتهي الى المكان الذي ابتدأ منه ، ثم يعقب الاستاذ — من عنده — بأن هذا ان دل على شيء فانما يدل على ان الارض كروية لسبب من الاسباب كما هي سنة التطور .

ويجيب — من عنده ايضاً — بأن كروية الارض لا تحتاج الى الاستدلال بعد ان اثبت العلم ان الاصل في كل جرم ان يوجد اول ما يوجد كروية الشكل ، وليس من شك ان الارض جرم فهي اذن كروية ومن قال بهذا لا يطالب بالبينة لان قوله موافق للأصل ، على ان الوجدان يؤيد هذا ويعززه ، وعليه فالقول المعاكس لا يبتني على اساس . وهكذا تدرس جميع القضايا والمسائل

باب الاجتهاد

وهذه الطريقة في التدريس نتيجه طبيعية لفتح باب الاجتهـاد ولولاه لمـا عرف الحق من الباطل ولما كان للاسلام هذه العلوم والمعـارف ، لان التقليد لا يفسح المجال للمنطق والتساؤل ولذا سار عليه الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي والاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت ، ونجد اليوم كثيراً من علمـاء الازهر الشريف يدعون الى فتح باب الاجتهاد وسد باب التقليد .

وجاء في كلمة الاستاذ الهلالي « فلا يسوغ للمجتهد الاجتهاد في الحوادث » ولعلها من سهو القلم ، لان معنى الاجتهاد استخراج الفروع من مصادرهـا وتطبيقها على الحوادث التي لا حد لها ولا نهاية ، ولا يمكن استيعابها بمجال ، فلا بد اذن من قواعد اساسية للاستنتاج والتفريع ، ومن هنا قـال الامام جعفر الصادق « انما علينا ان نلقي اليكم الاصول وعليكم ان تفرعوا » .

ونختم القول بكلمة للمستشرق (كارادي فو) : ان التشيع رد فعل لفكر حر طليق كان يقاوم جموداً عقليا » وقال الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور توفيق الطويل : « كان للشيعة فضل ملحوظ في اغنـاء المضمون الروحي للاسلام ، فان بمثل حركاتهم الجامحة تأمن الاديان التحجر في قوالب جامدة [1].

---

(١) كتاب « شخصيات قلقة في الاسلام » للبدوي وكتاب « اسس الفلسفة » للطويل

فهرست

صفحة

صفحة